



ماريوس فرنسوا غوميار

الأدب المفان

مع مقدمة من المؤلف
خاصة بالطبعة العربية

ترجمة
هنري زغيب



الأدب والمفان

ماريوس فرنسو اغونييار

الأدب المفارن

بسع مقدمة من المؤلف
خاصة بالطبعة العربية

ترجمة

هنري زغيب

منشورات عويدات

بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار

منشورات هويدات

بيروت - باريس

وذلك بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية في فرنسا

Presses Universitaires de France

الطبعة الثالثة ١٩٨٨

مقدمة المؤلف

للمطبعة العربية

إنني مزدوج السرور لظهور ترجمة عربية ، في بيروت ، لهذا الكتاب الذي ظهر منذ سنوات ، وما زالت تجري عليه مراجعات وتعديلات .

فالأستاذ الفرنسي الذي صار عام ١٩٧٦ ، عميداً لجامعات ليون ، يسعده أن يسهم ، وإن قليلاً ، في تمتين العلاقات التي نشأت من زمان بين المدينة الثانية في فرنسا ، وعاصمة لبنان ، هذه العلاقات التي لعبت ، وما تزال ، دوراً رئيسياً في الصداقة التي تجمع بين بلدينا .

لكن المقارن ، من جهة ثانية ، لا يقل سروره عن العميد . وإن كان هذا الكتاب اهتم خاصة بالكتب الصادرة في فرنسا ، وأوسع : في أوروبا ، وفي الولايات التي ، في أميركا ، توصل الثقافة الأوروبية ، فلذلك مبرران : أول ، أن هذا الكتاب وضعه أستاذ جامعي فرنسي لطلاب فرنسيين ، وثاني ، أن علم المقارنة الأدبية نشأ في أوروبا .

طبعاً ، ليس هذا سبباً لتطويقه في أوروبا . وقد يكون للقراء اللبنانيين ، تماماً كما الفرنسيون ، أن يتبعوا نهج التواصل المرسوم لهم في ميدان المقارنة .

وأمنيقي ، أن تثير قراءة هذا الكتاب ، لدى عدد منهم ، فضولاً يدفعهم أن يكونوا - كما كان أسلافهم - رواد العلاقات الأدبية الدولية ، وخاصة ، الروابط القديمة والمعاصرة بين ثقافة الشرق الأدنى وثقافة الغرب .

ماريوس غوتار

مقدمة

قبل الدخول في اثبات شرعية الأدب المقارن ، أود إبراز أطره «وطنياً» و«عالمياً» ، توصلاً إلى تحديد ، له ، بسيط وواضح .

١ - «وطنياً» : المقارن ، ليس الذي ، فقط ، يزوج أو يقابل آخرين أو ثلاثة آثار من آداب مختلفة . فالمقابلة الحتمية ، من ١٨٢٠ إلى ١٨٣٠ ، بين شكسبير وراسين ، هي من النقد والتأنيق الأدبي . بينما : إبراز ما عرف شكسبير من موتاني ، وما مرّ في مسرحياته من تأثيرات موتاني ، هذا هو الأدب المقارن . إذن : الأدب المقارن ، ليس المقابلة . فهذه ، ليست سوى واحدة من طرائق علم يمكن تسميته : «تاريخ العلاقات الأدبية الدولية» .

٢ - «عالمياً» : جرت محاولات كثيرة لتوسيع المقارنة حتى «أدب عام» ، يدرس «اللمسات المشتركة لعدة آداب» (بول فان تينغيم) ، سواء كان بينها مشتركات أو توارد . وتبعاً لعبارة غوته «الأدب العالمي» ، كان سعي لايجاد هذا الأدب من «مجموعة الآثار التي نحبا معاً» . لكن كلا الرأيين ، كان يبدو ، في أول الخمسينات ، ميتافيزيقياً أو غير نافع ، لدى أكثر المقارنين الفرنسيين . وكان جان ماري كاريه ، يرى ، كما من قبله بول هازار

وفرنان بالدنشرغر، أن حيثاً لا علاقة بعد، بين رجل ونص، بين أثر وبيئة، أو بين بلد ومهاجر، تتوقف العلاقة المشتركة في الأدب المقارن، لتبدأ علاقة النقد أو علاقة البيان والبلاغة.

هذا الأمر، كان مسألة نقاش طويل بين المدرستين الأميركية والفرنسية، دون مشكلة «جواز مرور»، اذكم من اميركي «فرنسي» وكم من فرنسي «اميركي». وفي عددها (ك ١ - آذار ١٩٥٣)، أصدرت «مجلة الأدب المقارن» الفصلية، ابحاثاً من مختلف الاتجاهات: الأميركية والألمانية والايطالية والفرنسية. وعام ١٩٦٠، لخص روبرت تريونف دراسة سوفياتية حول «الأدب المقارن في البلدان الاجنبية». ثم تلاه، في العام اللاحق، كتاب في أميركا لمجموعة من المؤلفين، فيه تحديد للأدب المقارن أنه «في مقابلة أدب بآخر أو بآداب أخرى، وبمحيطات أخرى للتعبير الانساني»، وعقب التحديد دفاع عن المقابلة التي تؤخذ، أو لا، بالتأثير الواقعي.

لكنني أخشى، ازاء هذه المقارنة المشحونة بكل شيء، ألا تكون، في النهاية، شيئاً. لكنها تتعلق بالتطبيق العملي، لأن التحديدات النظرية المتضاربة تنشأ بعد ابحاث تدعي وضع نظرية. فالهم، القيام بأعمال مجدية.

وبعد، اذا الأدب المقارن كان هرمياً في الثمانين، فهو صبا نظام

فكري ، وهو ذو قدرة على التغيير ، وما زال من العبث الولوج في
تحديده .

في هذا الكتيب ، لن أطيل الكلام في النظريات والمذاهب .
فبعد لحظة سريعة عن الجذور ، سأنتقل إلى طرائق الأدب المقارن
التاريخية ، أي الفعالة والانسانية في آن .

وهكذا ، اكون ضوأت على شرعية المقارنة الأدبية .

الفصل الاول تاريخ وجنور

« في كل أدب ، حاجة دورية للتلفت نحو الخارج »
(غوته) .

لأن العصر الرومنطقي ، في فرنسا ، هو الأكثر إلحاحاً لهذه الحاجة ، كان هو الذي شهد ولادة الأدب المقارن . وكان البدء مع سانت بوف الذي تبناها من جان جاك أمبير الذي وضع دروساً لتلامذته تحت عنوان « تاريخ الآداب المقارن » .

وكان الأدب المقارن ، يوماً ، يبدو ، في بداياته ، وعباً للكوزموبوليتية^(١) الأدبية ، مع ترق إلى دراسة هذه الأخيرة تاريخياً .

(١) في المصطلح : الكلمة ، في اليونانية ، من cosmos أي الكون ، نظاماً جيد الترتيب ، و *politia* مواطن . ويضاف اليها كعب *isme* الفرنسي (أو *ism* الانكليزي) مترجماً بـ « النسبة » و « المصدر الصناعي » (ب) للدلالة على المذاهب الفلسفية والاعلامية والسياسية وسواها .

العصور الوسطى الغربية ، الموحدة بالايان المسيحي واللغة اللاتينية ، هي كوزموبوليتية . وئمة تيار إنساني واحد يجمع الأدباء الاوروبيين في عصر النهضة (بداية القرن السادس عشر الأوروبي) ، والقرن الثامن عشر هو عصر الفلسفة واوروبا الفرنسية . هذه الحقبات الثلاث الكوزموبوليتية ، هي ، دون تساو ، حقبات وحدة لغوية ، أو هي تبرز هيمنة لغة مفهومة ايها كان ، ومحبية . فع الرومنطيقية ، وللمرة الأولى ، تتصادف ثبوتية الأصالة الوطنية ، مع حجم العلاقات بين مختلف الآداب . من هنا نفهم كيف فيلمان ، وأمبير وكينيه ، الكوزموبوليتيون الكبار ، هم أيضاً أوائل المقارنين ، انما تلزمهم طريقة عمل . فهم سافروا وتحمسوا وحاضروا وقارنوا ، لكنهم في الواقع قابلوا وزاوجوا معلومات من مختلف الآداب اكثر مما كتبوا

في المعنى العام هو مذهب يعتنقه من يتجاوز نطاق الأمة والشعب والقوم ، ويدعو إلى المواطنة العالمية

جاء عند شاتوبريان . وليس الأسلوب كوزموبوليتياً كالفكر ، لأن له أرض نشأة وساء وشمساً خاصة به .

وجاء عند بنديا : والانسانية شيء مخالف تماماً للكوزموبوليتية التي هي مجرد رغبة في التمتع بميزات الأم جميعاً والثقلات كافة . وتكون عامة خلواً من كل دوغمانية أخلاقية . وقال بلزاك : ولكي تسكن في باريس ، ليس ضرورياً ان يكون لك بيت أو وطن . فباريس ، مدينة الكوزموبوليتي ، أو مدينة الرجال الذين تزوجوا العالم واحسبوا ربطه بذراع العلم والفن والقدرة . (المترجم) .

تاريخها المقارن. وما إلا في نهاية القرن، حتى نشأ الأدب المقارن الذي اعلنوه وتصوروه، تياراً مستقلاً ومنتظماً.

وكما، منذ ١٨٧١، حملت دروس دانوا جورج براندس طابع الفكر المقارن، فإن هـ. بوسنيت، في كتابه النظري «الأدب المقارن» (في الانكليزية - ١٨٨٦)، يدشن رسمياً «المقارنة الأدبية». وفي العام نفسه، بدأ ادوار رود في جنيف يعطي دروسه في تاريخ الآداب المقارن. وفي ١٨٨٦ أيضاً، أصدر ماكس كوش في ألمانيا «مجلة الأدب المقارن».

والى الوعي الرومنطقي للكوزمبوليتية، يضاف العزم على استخدام الطريقة التاريخية التي، في ميادين أخرى - من لغوية وحقوقية وميثولوجية وسواها - اثبتت خصيها. من هذا، من جمع هذا، ولد الأدب المقارن. وقد يكون من المسم تتبع نشأته عاماً عاماً في كل بلد. لذلك، سأكتفي بتعداد بعض التواريخ وبعض العناوين.

عام ١٨٩٥ دافع جوزف تكست عن أطروحة في موضوع «جان جاك روسو وجذور الكوزمبوليتية الأدبية» كانت، في فرنسا، أول دراسة في المقارنة العلمية. وبين ١٨٩٧ و ١٩٠٤، تتالت مختلف طبعات كتب بيتر وبالدنشبرغر الجيولوجرافية، التي بينت طبيعتها الاخيرة، بعناوينها الستة الآلاف، الى اي مدى كان وصل انطلاق

الأدب المقارن. ومدى نصف قرن بعد ذلك ، كان لبالدنشيرغر تأثير مباشر على عدة دراسات مقارنة. وهو أسس ، مع بول هازار، عام ١٩٢١ ، «مجلة الأدب المقارن» في الفرنسية وأشرف على السلسلة التي انبثقت عن المجلة.

بين الحربين العالميتين ، تركز الأدب المقارن في فرنسا. والأهمية الممنوحة اليوم في ألمانيا من العالم كورت وايس ، والقيمة المطروحة من التدريس والابحاث في الولايات المتحدة ، واللفتة الجدية من الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية ، ونشاط المقارنين اليابانيين ، جميعها مؤشرات تدل على الطابع الدولي للأدب المقارن.

في فرنسا ، لدى أكثر الجامعات ، مركز تدريس للأدب المقارن. ومنذ ١٩٦٠ ، عقدت أهمية كبرى للمقارنة الأدبية. وعام ١٩٦٦ ، قامت نهضة اصلاحية في التعليم العالي ، عقدت لـ «التاريخ الأدبي العام» أهمية عنصر أساسي لدراسة الآداب الحديثة. وتطور الدراسات منذ ١٩٦٨ ، أبرز ، أكثر ، دور الثقافة المتعددة الآداب. وما كان ، قبلاً ، وفقاً على بضع عشرات من الباحثين ويضع مئات من الطلاب المتخصصين ، صار مبدئياً يدخله سنوياً آلاف المستطلعين.

مهمة هذا الكتاب ، دلالة هؤلاء ، على طرائق الدراسة.

الفصل الثاني

الهدف والطريقة

قلنا إن الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية . من هنا أن الباحث المقارن يتوقف عند الحدود اللغوية او الوطنية ويراقب تبادل المواضيع والأفكار والكتب والمشاعر بين أديين وأكثر . ومن هنا أن طريقة عمله يجب أن تنطبق على تنوع أبحاثه . لكن ثمة شروطاً مسبقة عليه اتمامها مما كانت اتجاهات أبحاثه . وهذه ، كما يقول بول فان تينغيم ، حاجته إلى «عدة» .

١ - «عدة» الباحث المقارن

أ) أولاً ، هو ، أولعته ، مؤرخ للآداب . انما هل يمكن ، في انصاف ، الحكم على بوسويه اذا نجهد وضع الكنيسة في فرنسا القرن السابع عشر؟ اذا ، عليه أن يتجهز بثقافة تاريخية كافية تمكنه من وضعه الأحداث الادبية في اطارها التاريخي . لنا ، كان مستحيلاً على بول هازار درس «الثورة الفرنسية والآداب الايطالية» (١٩١٠) ، لو لم يعرف جيداً تاريخ فرنسا وايطاليا في أواخر القرن

الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

ب) لكن الباحث المقارن ، هو مؤرخ العلاقات الأدبية . اذن يجب استعلامه وافياً عن الآداب في عدة بلدان . وهذه حقيقة بديهية .

ج) هل من الملزم اتقانه قراءتها في لغتها الأم ؟ السؤال مطروح ، ليس فقط لكثرة اللغات والقوى الانسانية ، بل لأن الآثار الاجنبية لم تشتهر إلا بالترجمة . فكثيرون من الرومنطقيين ذكروا غوته وهم لا يعرفون الألمانية ، بل اكتفوا بما وصلهم منه مترجماً . من هنا : لا يمكن تقدير مدى تأثير غوته عليهم إلا بعد تقدير الفارق في غوته بين الموضوع والمترجم . اذن على المقارن ان يعرف عدة لغات ، مما يساعده على بحث أمور في لغتها الأم .

د) عليه ، أخيراً ، أن يعرف كيف يجد معلوماته الأولى وكيف يقيم بياناً بمصادر الموضوع ومراجعته . وان لم يكن هذا الأمر جامداً ومتشابهاً ، فثمة ادوات عمل لا غنى عنها مطلقاً :

١) الكتب البيبليوغرافية لمختلف الآداب .

٢) في الأدب المقارن الصرف ، يجب تتبع أحدث ما صدر من نشرات وعضاوين .

٣) كتاب «الروزنامة الزمنية للآداب الحديثة» الصادر في

اشراف بول فان تينغيم عام ١٩٣٧ ، والذي يجمع لأربعة قرون (١٥٠٠ - ١٩٠٠) جدولاً شاملاً سنوياً للإنتاج الأدبي الأوروبي .
منه ، مثلاً ، لعام ١٨٠٢ :

- في ألمانيا : «ايفيجيني» لغوته ، وفاة نوفاليس صاحب
«أناشيد الليل» .

- في إنكلترا : «أناشيد شعراء الحدود السكوتلندية» لوالتر
سكوت .

- في فرنسا : «دلفين» لمدام دوستال ، «عبقرية المسيحية»
و«رينيه» لشاتوبريان .

- في إيطاليا : «آخر رسائل جاكوبو أورتييس» لفاسكولا .

(٤) كتاب «أطر الأدب المقارن» لورنر فريدريخ (١٩٥٤) .

(٥) مجلات الأدب المقارن في فرنسا وإنكلترا والولايات
المتحدة .

ومن خلال أدوات العمل هذه ، يتمكن المقارن ، في فترة معينة
يشاؤها ، من الإحاطة بمسألة وما يكتنفها من أعمال مواكبة لها .

٢- ميدان الأدب المقارن

فلتبعه الآن ، في الخط الذي بدأه ، لتتقضى معه الهدف
والطريقة .

١ - عناصر الكوزموبوليتية . - لكل عصر كتبه وأدباؤه الذين يسهمون في تعريف الآداب والبلدان الأجنبية . وفيهم يجد الأدب المقارن أول أهداف البحث .

أ) الكتب . - على الأدب المقارن ان يتأكد أولاً من اللمحات الدقيقة التي كانت لأديب أو جماعة أو عصر، في لغة أجنبية . ولهذا البحث ، أهمية أدبية ثابتة : قد نتحسس لرواية مترجمة ، لكننا لا نقدرها حقاً إلا في لغتها الأم . ولكن ، كيف يمكن ، في خلاصة واحدة ، جمع المعلومات اللغوية لرجل أو بيثة ؟ بالنسبة للفرد ، قد يبدي جهله في هذه الإحاطة . من هنا ان على المقارن ان يبحث لدى الكاتب عن آثار مطبوعة في لغة يقرأها . فالترجمة دليل دامغ على الأصالة ، وكاشف لا الى جدال : فرسائل فولتير في الانكليزية تظهر تطوره وتبرز المستوى الذي لم يستطع ان يتخطاه . والاستشهادات المستخدمة في أية دراسة ، تعطي حلولاً للمسائل الصعبة التي لها أن تمس كرامة الأديب .
هذا بالنسبة للأديب .

أما بالنسبة للجماعة ، فليس من وسيلة إلا القواميس والكتب اللغوية والتربوية . من هنا ، أن قاموساً لاتينياً ايطالياً فرنسياً كالذي وضعه الأب انطونيني عام ١٧٣٥ وأعيد طبعه مراراً عديدة ، هو دليل قاطع على انتشار الايطالية في فرنسا خلال القرن الثامن عشر .

وتأتي الترجمات ، في كل عصر ، دليلاً آخر على انتشار المعارف عن الآثار الأجنبية . فالمقارن ، اذا شاء أن يعرف ما كان الفرنسيون أيام الثورة الفرنسية يعرفون لغوته ، عليه أن يقيم لائحة بالطبعات الفرنسية الصادرة لغوته . وهذا عمل بحثي بحت . يليه عمل تحليلي ونقدي : هل هذه الترجمات كاملة وأمينة ؟ ماذا فيها من تعديلات ؟ ماذا تلتقي من اضواء على شفافية العصر ؟

الآثار النقدية ، منبع آخر للمعلومات عن الأدب الأجنبي . قد يلصقها القارئ أحياناً بالآثار نفسها . مما قرأ عنها في مقتطفات أو ترجمات . لكن من عمل الباحث المقارن ، أيضاً ، أن يجمع مثلاً جميع الكتب والمقالات الصادرة خلال فترة معينة في فرنسا عن شيلي أو كيتس ، ثم تحليلها وتقدير قيمتها ومدى تأثيرها . من هنا . في هذا المجال ، أهمية دراسة المجلات والجرائد التي ساهمت في نشر الآثار الأجنبية ، وخاصة المتخصصة منها . (مثلاً ، في فرنسا : «جورنال اترانجيه» - الجريدة الأجنبية - في القرن الثامن عشر أو المنبسطة لعدد كبير من القراء («لا ريفودي دوموند» - جريدة العالمين - أو «لا نوفيل ريفو فرانسيز» المجلة الفرنسية الجديدة . في القرن التاسع عشر والقرن العشرين) . لكن أعمالاً كهذه ، يلزمها التنظيم والجلد . ويخرج منها بحث معمق في تأثيرات الآداب بعضها على بعض . فالرو ، مثلاً ، اكتشف فولكنز ، وكانت تلك ، منه ، مغامرة شخصية . وبعده تكاثرت الدراسات عن فولكنز في المجلات ، فكان

ذلك عاملاً اجتماعياً طَبَعَ العصر.

أخيراً، ثمة من يكتفي بقراءة ما كتبه الآخرون عن البلدان الأجنبية. فأكثر من مشترك بمجلة «لا ريفو دي دوموند» حوالي ١٨٤٠. لم يقرأ أي أثر من غوته أو هين. بل تابع مقالاً عن أحدهما كتبه جان جاك أمبير أو ادغار كينييه، عن رحلة إلى ألمانيا. من هنا أهمية قصص الرحلات في فهم تكوين اسطورة حول أديب أو بلاد. ومن هنا، أهمية «الرسائل التقوية»، التي أرسلها الآباء اليسوعيون إلى حكماء الفلاسفة، في تكوين صورة تقرب من الرمز، عن الصيني الصالح. هنا أيضاً، دور القائمة الرئيسي. كما يجب الاطلاع على مدى انتشار كل كتاب، وتأثيره، ومعرفة كاتالوجات المكتبات، وحسابات الناشرين وشهادات المراسلين من القراء.

ب) الأدباء. - حتى الآن، عرضنا للقواميس والترجمات والرحلات. بمعزل عن أصحابها. فهؤلاء.. لا تكون لهم أية فائدة مباشرة. فبعض الكتب، أهميته في كونه عنصراً في إحصاء أو انعكاساً لرأي منتشر. أما المؤلف، حين يكون مثلاً من وزن فولتير، فن الضروري، في دراسة «الرسائل الانكليزية»، معرفة كيف عاش في انكلترا، وما كان يعرف عن لغتها وبلادها وناسها.

وهكذا، بين جمهرة الأدباء المغمورين، وأدباء الدرجة الأولى، يقف الأدب المقارن مع الذين كانوا ممثلين لبلادهم في بلاد

أخرى ، أو لثقافة اجنبية في بلادهم ، كما «سوارده» الفرنسي النزعة في الأدب الانكليزي أو جورج مور الانكليزي الذي حمل الذوق الفرنسي الى مواطنيه أو دويوس صاحب النزعة الكوزموبوليتية الأدبية .

هنا ، طرائق المقارن ، كما طرائق كل دارس سير . لكنه ، للتأكد من أمانة مترجم ، أو ذكاء ناقد أو صدق رحالة ، يجب له معرفة معمقة في لغة البلاد وأدبها وناسها .

٢ - ثروة الانواع . - عرضنا ، حتى الآن ، للعدة (ترجمات ، رحلات) وللعناصر (مترجمين ، رحالة) ، في العلاقات الأدبية الدولية ، لا لهذه العلاقات في ذاتها .

واذ نعرض لها ، أول ما يلفت : الانواع التي تنشأ وتنمو وتموت ، غالباً دون مؤثر ظاهر . لماذا ، مثلاً ، ما عادت تظهر مأساة شعرية فرنسية من خمسة فصول كما من قبل ؟ لماذا انتشرت في كل بلدان أوروبا ، الروايات التاريخية مع مطلع القرن التاسع عشر ؟ لماذا في القرن السادس عشر غنى جميع الشعراء حبهيم في قصائد من ١٤ بيتاً ؟

ثمة ، اذن ، انواع اندثرت . وجاء أدب القرن العشرين بأطر جديدة ، محا القديمة ، ولا بدّ للجديدة ، هي الأخرى ، أن تنقرض . فالرواية الفرنسية في الخمسينات . لا أطر جامدة لها ، كما

المأساة الكلاسيكية . ومع هذا ، تصرّف الروائيون الفرنسيون بأنواع جديدة ومتطورة ، فبدت عندهم التطابقية ، والحوار الداخلي ورمزية الأحلام وجميعها مادة للمقارن كي يجد فيها الجذور الأجنبية . ومفهوم « النوع » ، يحويه مفهوم التقنية . فالكاتب ، لا تعود تهمة الأمانة للاصطلاحات المفروضة ، بقدر ما يهيم اتخاذ وجهة نظر من الأحداث ، تختلف بين المدة أو النفسية ، حسب التبوثق في قواعد تحدّد أطر الأنواع .

اذن ، فالبحث في ثروة هذه الانواع ، عملية تاريخية ، لكنها معاصرة . لأنه يخضع لشرطين : نوع محدد ، وبيئة متقبلة غير محددة في المكان والزمان . وتهون مهمة المقارن ان هو تتبع في بلد اجنبي واحد نوعاً أدبياً معروف الجذور ، كأن يدرس مثلاً الكوميديا الاسبانية في فرنسا خلال القرن السادس عشر ، أو الاقتباسات الانكليزية للمأساة الفرنسية الكلاسيكية . لكنه قد يتعمق اكثر ، فيدرس التاريخ الأوروبي للرواية التاريخية في القرن التاسع عشر ، أو قصيدة الـ ١٤ بيتاً في القرن السادس عشر .

الطريقة تكون في :

أ) تحديد النوع : اذا كان البحث في النزعة أو الاسلوب ، يكاد يكون عقيماً . فكيف البحث في تأثير أسلوب ، حين النصوص أجنبية وواصلت مترجمة ؟ كل ما يمكن لحظه : نوع محدد المعالم ،

يعرفه المقتبسون الأجانب ويدونون مشابهاً ونحولاته .

(ب) البات الدخيل : وهو قد يكون مباشراً أو غير مباشر. ففي خلفيات مختلفة ، استوحى فولتير وهوغو وكلوديل من الدراما الشكسبيرية مباشرة ، لكنهم لم يبقوا من شكسبير إلا المصدر الذي يضعف مع تحركاتهم ومسرحتهم .

(ج) تقدير الحركة المتبادلة للنوع والكاتب : اذا كان الاختيار حراً ، لماذا وقع الكاتب ما سوى عليه ؟ وماذا وجد فيه من غنى وأطر ؟ واذا كان الاختيار مفروضاً ، ما مدى ما بقي من حصة الكاتب ؟ وهل سحقت الشكل ؟ وهل استنفذ جميع منابعه ؟

كلنا يذكر صراعات كورناني ضد قواعد أرسطو. الأدب المقارن يظهر الكلاسيكيين الانكليز إزاء المبدأ الراسيني للمأساة. هذه الدراسة ، تظهر جلياً مزاج الكاتبين وحتى مزاج الشعبين .

ان دراسة ثروة نوع أدبي وغناه ، تتطلب دراسة فعالة ، وطريقة تاريخية شائكة ، وولوجاً سيكولوجياً عميقاً. وهذه الأعمال ليست جافة ، بل هي - أو يجب أن تكون - عمل كاتب أخلاقي . وفي هذه الأعمال ، يتفتح الأدب المقارن ، إلى علم نفس مقارن .

٣- ثروة المواضيع . - لجميع الآداب الغربية الأخرى ، فوست أو دون جوان . من أين هذه النماذج التي نجدتها كثيراً ، وتتغير رموزها ومعانيها مع تغير العصر وادبائه وتبقى هي هي ؟ البحث ، هنا ،

في الموضوع ، لا في الشكل . والألمان يسمون هذا النوع من الأعمال ، «تاريخ المواضيع» ، وأدرجوا الأدب المقارن على هذا الخط . والمدرسة الفرنسية ، يساندها بينيديتو كروتشي ، كانت تحكم على هذه الأعمال بأنها جافة ومرصودة على التنقيب البحت . والواقع أن هذه الأعمال لا تتطلب غالباً إلا مجرد إحصاءات ضعيفة التعليق والحواشي . ولكن كل أمر يتوقف على مقدرة الأديب والموضوع الذي اختاره . وهو لا يعطي للعرض إلا وحدة مصطنعة . من هنا أن دراسة فوست لدى الأدباء الفرنسيين والألمان ، تعني - من غوته الى فاليري الى توماس مان - تتبع موضوع أدبي أصلاً ، يوحى بخطوط مميزة للسيكولوجيا الفردية أو القومية .

٤ - ثروة الأدباء

أ) نقطة الانطلاق ، هنا ، دقيقة جداً : في آثار أديب . أو أحد آثاره ، أو لدى أديب شخصيته شعت كما أدبه . أمثلة على الحالات الثلاث : مسرح شكسبير ، هملت ، غوته .

ب) المطلق يمكنه أن يتوسع : من أديب الى جماعة الى بلاد . من هنا ، قيام دراسات متشابهة ، انما ذات محمل مختلف : شكسبير في فرنسا ، هملت في فرنسا ، غوته في فرنسا ، تأثير شيلر على المسرحيين الرومنطيين ، تأثير غوته على كارليل .

ج) هذا النوع من الأبحاث يمثل في الأدب المقارن ، في نظر الفرنسيين ، لأنه أكثر ما مارسه العلماء الفرنسيون . المبدأ قد يبدو سهلاً ، لكن معالجته عن قرب ، تبدي مسائل معقدة ، اذ يجب التمييز بين الانتشار والتقليد والنجاح والتأثير . أكثر الكتب مبيعاً ، هو كتاب ناجح . لكن تأثيره الأدبي قد يكون معدوماً . شعر مالارميه في فرنسا ، كان انتشاره ضئيلاً . لكنه ألهم شعراء أجنب كثرين . ودراسة انتشار أثر ، وتقليداته ونجاحه ، عملية صبر ومنهج . أما استقصاء تأثيره ، فعملية أدق .

قائمة عدة أنواع من التأثيرات :

— التأثير الشخصي : مثلاً : تعبد جان جاك روسو في حياته وبعد موته .

— التأثير التقني : مثلاً : عظمة الدراما الشكسبيرية إزاء الرومنطيين الفرنسيين .

— التأثير الفكري : مثلاً : انتشار الفكر الفولتيري .

— التأثير في المواضيع أو الأطر : استعارة المواضيع من المسرح الإسباني إلى المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر .

ويعد ، كما قال البابا بيوس الحادي عشر الى بول هازار ، يجب عدم رؤية «علاقات العلة والمعلول حياً ليس إلا تداخل وتشابك» .

ونحارج السرقة الأدبية الشكلية ، ثمة تأثير خاطئ من ديكرت على دوديه الذي لم يقرأ حرفاً من الروائي الانكليزي . وأحياناً يجب الاعتراف : هذا ما كان معروفاً عن غوته أو دوستوفسكي في هذا العصر وتلك البلاد ، مع عدم ذكر التأثيرات المحددة .

د) على الطرائق أن تتأقلم في أبحاث منوعة ، تفي جميعها بالشروط المعروفة نفسها : معرفة عميقة بالأثر والرجل الذي تدرس ثروته في بيئته المتلقية ، ثم تنقيب دقيق في الكتب والجرائد والمجلات ، انتباه دائم إلى التسلسل التاريخي ، تمييز دقيق ، في الخاتمة ، بين التأثير والنجاح .

هـ - المنايع . - في أتباع معاكس ، يمكن اعتبار الأديب . لا مولداً بل متلقي تأثير ، لذا يسهل كشف منابعه الأجنبية . والذي خاض في أبحاث كهذه ، يعرف صعوبتها ، وهنا سر الإبداع . ولكن ، هل تمكن المشاركة في المشاعر (رحلة غوته الى ايطاليا) ، والمصادر الشفوية (حوار لامرتين مع دكشتاين حول الهند) والمصادر المكتوبة (قراءات شاتوبريان الانكليزية) ، دون الوقوع في انكار تفرد الكاتب العبقرى لدى خنقه تحت لائحة المصادر والمراجع واقامة جدول قد لا ينهي ؟ ولكن هذه ، هي التي يتوقف عندها الناقد . ويبدأ التعقيد حين المشابهة في الفكرة أو الشكل مطابقة للمستعار أو هي بعيدة عنه . وغالباً ، في غياب السرقة الأدبية الفاضحة ، أو

اقرار صريح من الأديب ، لا يتعدل البحث في المنابع والمصادر أكثر من لائحة المراجع المقروءة .

٦ - حركات الأفكار - حين ليس الأمر في الانواع أو المواضيع أو الأدباء ، بل في الأفكار وفي حركات المشاعر ، تصير لعبة التأثيرات أصعب اتباعاً ، وبصير على المقارن ، لكي يلاحق الحركة التي يريدتها ، أن يبحث في عدة بلدان وعدة آداب . بول هازار يرى ذلك ممكناً . بول فان تينغ عرض طرائق الابحاث في « الأدب العام » ، ووجد أن هذا العمل لا يقوم به الا كبار العلماء . وهنا وجب التمييز جيداً بين المطابقة والتأثير . فالمطابقة تكون تثقيفية وتضفي الى تاريخ كل أدب معنى للنسي يخونها حينها تنعزل . فهذا كتاب « أزمة الوعي الاوروبي » لبول هنر يبين للآداب الفرنسية بين ١٦٨٠ و ١٧١٥ ، تراجعاً لم يبرزه سواه .

٧ - تمثيل البلاد . - كل شعب يلصق بالشعوب الأخرى خصائص تبرزه قريباً من الأسطورة . قرب اغنية في أساس اشاعة : منها في فرنسا مثلاً ، إشاعة أن « البورتغاليين شعب سعيد » . وثمة ظواهر أعمق : الفرنسي ليس مهياً لتقبل المزاج الانكليزي كما الألماني . وفي تعداد هذه النماذج الوطنية ، يلعب الأدب دوراً خطيراً في قصص الرحلات ، وفي الروايات والمسرح . فكم من الذين تعمدوا التحقق من كلام اندره موروا في انكلترا ، أو كلام مدام دو ستال في المانيا ؟

وبقى من مهات الأدب المقارن ، دراسة نشأة هذا التمثيل
للبلاد ، ونموه وتطوره .

(أ) التمثيل بأدب أجنبي : مثلاً : بريطانيا العظمى في الأدب
الفرنسي خلال القرن التاسع عشر. من هم الفرنسيون الذين أعلموا
مواطنيهم عن انكلترا؟ ما هي أحكامهم ومعارفهم؟ هل زاروا
البلاد. وماذا شاهدوا منها؟ هل ثمة شخصيات انكليزية في رواياتهم
ومسرحياتهم؟ ما أمرجتهم؟ لماذا؟ هنا لم يعد الأمر تأثيراً بل تمثيلاً .
ودراسة كهذه ، تؤدي إلى فهم كيف الفرنسيون يرون الانكليز ولماذا؟
وهذا يوجب قراءة ناهية للآثار الفرنسية ، انما ، أيضاً ، تجربة
شخصية عن انكلترا . الى هذا ، يمكن الأدب المقارن ان يساعد
البلدين على عملية دراسة نفسية وطنية ، اذ كل منها ، بمعرفته
المصادر ، يعرف نفسه أكثر ويسامح الآخر أكثر على « استعاراته » .

(ب) التمثيل بأديب أجنبي : دراسة كهذه ، محصورة في
أديب . تحاول أن تفهم مدى تمثيله لبلد أجنبي . اكثر مما تسعى الى
استخراج التأثيرات التي مورست عليه . فدراسة عن فولتير وانكلترا ،
تكشف ما اخذ فولتير عن لوك ، لكنها تكشف أيضاً كيف المنى وجد
البلاد وتعلم لغتها وعقد فيها صداقات . وحين عاد الى فرنسا . ماذا
عرف الفرنسيين بانكلترا؟

من حسنات هذه الأعمال ، أنها تستبعد عقبات التأثير . والذين

يعملون فيها ، عليهم أولاً . في تنقيب واسع ، أن يجمعوا كل ما . في العصر أولدى الأديب . يمت بصلة إلى البلد المعني (إذا كان هذا . مثلاً ، بريطانيا : ان يجمعوا مذكرات البحارة . والشخصيات الانكليزية ، والأحكام المطلقة على انكلترا والانكليز . ويجب التعرف إلى خالتي هذه الشخصيات أو مطلقتي هذه الأحكام . وجمع النتائج الحاصلة مع اعتبار التسلسل التاريخي ونجاح الأدباء والتمثيلات الخاصة التي تؤدي ، في العصر المعني . إلى صورة معينة عن انكلترا . هذه الاعتبارات جميعها . ضرورة لكشف الطرق التي يسلكها المقارنون . فلنأخذ هذه الطرق ، واحدة واحدة . وفي كل اتجاه .

العمل الثالث

عناصر الكوزموبوليتية الأدبية

١ - الكتب

أ) المعرفة اللغوية : أول عمل في «ورشة» الأدب المقارن : استكشاف هذا الميدان . وفي محاضرة عام ١٩٤٢ . اعترف بول هازار أنه ، بعد خمسين عاماً من العمل المقارن ، بقيت المسائل اللغوية على إشكال . وبقيت هذه النظرية سائدة وصحيحة حتى أول السبعينات (رغم استثناءات كتاب بول ليني عن «اللغة الألمانية في فرنسا» ، الصادر عام ١٩٥٢) .

والمعروف أن هوغو ، الى تعلقه في المنقوشات الألمانية ، لم يكن ضليعاً في الألمانية أكثر من لامرتين وفينيبي وموسيه . واللافت جداً ، هذا الأمر ، في معرفة الميل الى الألمان وأديهم ، لدى الرومنطيقين الفرنسيين .

في دراسته القيمة «بريطانيا العظمى إزاء الرأي الفرنسي في القرن السابع عشر» (١٩٣٠) ، تخصص جورج أسولي فصلاً خاصاً لمعرفة

الانكليزية في فرنسا خلال ذلك العصر.

انما هذه الملاحظات ، لا تتعدى إشارة أو فصلاً في كتاب .
والمحاولة الجدية ، كانت للغويين مثل فريزر ماكتري الذي درس
«العلاقات بين إنكلترا وفرنسا بحسب المفردات» (١٩٣٩).

هذا الموقف على حدود الألسنية والأدب ، جعل منعطفاً هاماً في
عمل المقارنين . فقبل دراسة تأثير بلد على آخر ، أو أديب على آخر ،
يجب إدراك مدى قدرة الجمهور المثقف في ذلك البلد أو لهذا
الأديب ، على قراءة نص أجنبي . من هنا ، فائدة السيليوغرافيا
الموجزة التي أدرجها سواريز غوميز حول «الكتب التي تعلم بها
الاسبان الفرنسية» ، من ١٥٢٠ الى ١٨٥٠ ، وفيها الأسس الثابتة
للتأثير الفرنسي في أسبانيا

ب) الترجمات : لم يتم التدقيق في أمانة الترجمات ، وخاصة في
فرنسا . ومن دراسة واحدة مثل «أوتيلو في الفرنسية» لما رغريت جيلمان
(١٩٢٥) نتصور هيولى التذوق وتطابقه التصاعدي مع سيكولوجيا
أجنبية : فاذا «منديل الحرير» لدسدمونة ، يتحول إلى «سوار» في
الفرنسية ، و«شال» ، حتى جاء فينيبي وأعاده «منديل الحرير» .

وكذلك دراسة إميل أودرا حول «الترجمات الفرنسية لبوب»
(١٩٣١) ، وهي عرض بيبلوغرافي بسيط ، تؤدي إلى اتباع موجة
بوالوانكليزي . لكن هذه الكتب نادرة . وفي المؤلفات التي وضعها

فرنسيون عن ثروة الأدباء الأجانب ، وجب التحقق من أمانة المترجمين . وكذلك الانكليز والالمان والايطاليون ، وخاصة تجب العودة إلى « دليل الترجمات » الذي وضعته الأونسكو .

ودراسة التحقق من الترجمات ، وهي عمل عقوق ، أهميتها في ما تنقل إلينا من المترجمين : أسوأهم يعكس لنا ذوق جماعة أو عصر ، وأفضلهم يسهم في تداخل أوثق مع الثقافات الأجنبية ، ومنهم ، وهم خلاقون مبدعون ، يفعلون بالأثر الذي يترجمونه ، ويشركون قراءهم بهذا الانفعال . لكنهم جميعهم يشكلون الركيزة الأساسية في العمل الجدي على « المسائل النظرية للترجمة الأدبية » وهي « في صلب المقارنة المعاصرة » .

ج) الآثار النقدية ، المجلات ، الجرائد : والمقصود هنا : مجموع الكتب التي مؤلفوها غابوا في النسيان . غيرهم - كما « راسين وشكسبير ، نستندال أو « ألمانيا » لمدام دو ستال - لا يمكن درسه معزولاً عن مؤلفه الشهير . واليوم ، حين كبار النقاد أدباء ، والأدباء يتعاطون النقد ، لا يمكننا تصور أن قبل القرن التاسع عشر ، كانت ثمة مؤلفات نقدية مهمة . كانت ثمة مقدمات مترجمين ، لا يمكن الأدب المقارن إهمالها ، حتى ولو كان لواضعها شأن ضعيف . وغالباً ما توجد هذه المواد المطلوبة ، في الجرائد والمجلات .

وعلى الباحث المقارن ، أن يهتم بالمجلات والجرائد التي تختص

بالآداب الاجنبية : مثلاً «المجلة البريطانية» (١٨٢٥ - ١٨٤٠) التي درسها ، في عمق ، كاتلين جونس (١٩٣٩) . ولكن ، كما ورد سابقاً ، في الفصل الثاني ، أبرز المجلات أو الجرائد ، وأهمها وأكثرها مدة ، هي تلك الموسومة «ذات طابع عام» . ولا تقوم دراسة قيمة ذات تأثير أو انتشار ، دون الرجوع الى هذه المجلات والجرائد . لكن هذا لا يقلل من قيمة الدراسات الفردية كالتى قام بها بول فان تينغيم حول «السنة الأدبية من ١٧٥٤ إلى ١٧٩٠» عام ١٩١٧ . ففي هذه الدراسات المتخصصة ، يجد المقارن ، في تفتيشه عن التأثيرات والصور الأجنبية ، مرحلة امامه بجائزة سلفاً .

الى كل ما يجب عمله مما ذكرناه آنفاً ، يبقى شيء مهم . وهذه أمثلة ثلاثة ، من ثلاثة عصور مختلفة ، تدل على ذلك .

كلنا يعلم الدور المهم الذي لعبه ، في اوربا ، انتشار الأفكار البلديدة التي نشرتها الجرائد الفرنسية في هولندا مع آخر عهد لويس الرابع عشر وخلال عهد لويس الخامس عشر . ويبدو أثر ذلك في مؤلفات كثيرة ظهرت ، أبرزها «أزمة الوعي الأوروبي» لبول هازار . ولكن ، منذ ١٨٦٥ ، سنة ظهور كتاب أوجين هاتان ، لم يعد يظهر أي عمل جماعي عن هذه الجرائد المهمة .

ويتميز القرن التاسع عشر بأن فيه قصوراً عن العمل المقارن وحتى عن التاريخ الأدبي في وجه عام . مع أن في مجلة «لا ريفودي

دوموند، نموذجاً حياً لذلك، هي التي كتب فيها موسيه وفينيبي وجورج صائد وآخرين من الرومنطيقين. وابرار ما ظهر في هذا الموضوع: دراسات أوغست انجليس، عن المصالح الأوروبية للكوكبة التي تجمعت حول جيد وشلومبرغر واعطت تاريخ الأدب الفرنسي امتدادات صالحة للمقارنة.

ازاء هذه الحالة المجزأة من التنقيب الفرنسي، قامت، في الميدان البيبليوغرافي، محاولة أجنبية مهمة: الأدب الألماني في المجلات الانكليزية (١٧٥٠ - ١٨٦٠) لمورغان وهولفيلد

وفي اختصار، تم درس بعض المجلات الفرنسية والاجنبية، خاصة من القرن الثامن عشر، كما: «السنة الأدبية»، و«الحريرة الأجنبية»، و«أوروبا الأدبية» (١٨٣٣ - ١٨٣٤)، و«المجلة المعاصرة» (١٨٨٥ - ١٨٨٦). لكن الميدان لا يزال يتسع.

(د) الرحلات: بين النصوص التي ساهمت في الوصل بين الآداب الوطنية، يذكر المقارنون أدب الرحلات. فحتى الأدباء، قليلهم يقرأ الآثار الاجنبية في لغتها. والباقون يقرأونها في الترجمات أو في نصوص الرحلات. فهذه انكلترا، لاندريه جيد، مجموعة روائيين وشعراء، بينما هي لفولتير ومعاصريه نمط حياة ومؤسسات سياسية.

وهنا الأدب المقارن: معرفة كيف الرحالون قَدَمُوا الشعوب التي

زاروها ، إذ ، من خلال نصوصهم ، غزت مواضيع جديدة بلادهم ، من طراز التساهل الانكليزي . والفضيلة الألمانية ، والصوفية السلافية ، كما غزت وجوه جديدة معاصريها ، في غياب المؤلفات .

وازاء هذه النصوص ، للمقارن أن يتخذ موقفين مختلفين (لكنهما يتوحدان في الدراسات ذات الطابع العام) ، وهما :
- البحث عما ، في عصر معين ، كانت أمة تعرف عن الأخرى ، بفضل رحالها .

- دراسة رحالة في مكتشفاته وساطته وميوله .

وفي الحالة الثانية ، يتركز الاهتمام على المؤلفين . فيما يتركز ، في الأولى ، على المؤلفات . فلتحديد ما عرفت فرنسا القرن الثامن عشر من ألمانيا أو انكلترا المنتصرة على إيطاليا ، تجب العودة الى مؤلفين ثانويين وذوات رأي عادي . فالهم ، هنا ، في البلد الموصوف ، لا في شخصية الوصافين .

ومن كتاب فرنسيسك ميشال «السكوتلنديون في فرنسا والفرنسيون في سكوتلندا» (١٨٦٢) ، نكتشف أهمية هذا النوع من الأبحاث التي ، منذ ازدهار الأدب المقارن ، نمت وتطورت . فهذا هاو: هنري بوردو ، خصص مؤلفاً من جزئين عن «رحالة الشرق» (١٩٢٦) ، وهذا ، اختصاصي: جان ماري كاربه ، تتبع

«الرحالة والأدباء الفرنسيون في مصر» (١٩٣٣) ، فوجد فولناي
الايديولوجي الذي يضحى بالمغامرات الشخصية ليضع بحثاً في أرض
الفراعنة ، ووجد علماء الاكتشاف في مصر يطلعون بعدها الشروح
والتفاصيل ، ووجد شاتوريان ، الحاج السريع الذي يتوجه سريعاً نحو
اسبانيا ، ووجد نرفال باحثاً عن الاساطير القديمة والبراقش الشرقية ،
وفلووير ضائعاً في بحر ألوان ، وعلم في «مدام بوفاري» ، وفرومنتان
مسجلاً ملاحظات ومشاهدات للوحاته .

كتاب كهذا ، مزدوج النفع : فهو يشرح انوجاد المواضيع
المصرية في الأدب الفرنسي ، ويوضح ، اكثر ، كيف شرح أدباء
فرنسيون كبار مواقفهم لدى وقوفهم في الطبيعة المصرية وبين أطلالها .
فهذا فلوير ، مثلاً ، كان دائم الحلم بالشرق في بلده النورماندي ،
بينما في الشرق راح يحلم بالنورماندية البورجوازية التي يحبها . أليس
هذا التناقض ليكشف نفسيته ؟

٢ - الأدباء

أ) المترجمون : من الممكن تقدير ترجمة دون معرفة صاحبها ،
فعمله يوضح عنه الكثير . أما اذا كان ذا شخصية قوية ، أو اذا كان
ترجم آثاراً مهمة ، كما لوتورنور الذي تصدى في فرنسا
لترجمة يونغ وأوسيان وشكسبير ، فهو يستحق دراسته هو في ذاته .
وهذا ، مثلاً ، حال جان باتيست سوار الذي خصص له ألفريد

هانتر، عام ١٩٢٥ ، دراسة مهمة .

- سوار: كان من أولئك الذين يتمتعون بشهرة صاغها لهم معاصروهم . ولم يعرف عنه في حياته الطويلة (١٧٣٣ - ١٨١٧) الا اختلافه إلى الصالونات الأدبية والصحف ، مما كان كافياً ليحظى بكرسي في الأكاديمية . وأهميته ، في عمل المقارنين ، أنه أدخل الأدب الانكليزي إلى فرنسا . فهو ترجم رحلات كوك وقصة لروبرتسون عن تسارلكان ، وسيرة هيوم . وحرر طوال ١٢ عاماً (١٧٥٤ - ١٧٦٦) القسم الأجنبي في «لاغازيت ليتيرير» ، فساهم في مقالاته وترجماته بتعريف غراي وأوسيان . ومعه نشهد ولادة (واحتجاب) جريدتين كان لهما أثر كبير في تاريخ العلاقات الأدبية الفرنسية الانكليزية . وإذا كان هنتر ، في دراسته عن سوار ، يستنتج دون أن يشرح ، فدلليل على كم كانت الحدود ضيقة في دراسة المترجمين .

ولفهمهم ، ثمة مجهود خاص ، يوضح نفسياتهم . فن القرن التاسع عشر (عصر الفتوحات الأدبية) ، إلى عصرنا اليوم ، يدل بالجهل على تمحور كثير في النص الأصلي . من هنا ، ان موريس باريس . ترجم كلمة «ليمون» الإيطالية ، (ومعناها «ليمونة حامض») بعبارة «كعكة الأرض» ، وأخرج منها مفاعلات غنائية جميلة .

وثمة تعديلات (تبلغ حدّ التحوير) مقصودة وذات طرافة . منها ما حدث مع بياركوست ، الذي ، كي يترجم لوك ، أعلن نفسه «مطلق الصلاحيات» في الترجمة (١٧٠٠) ، ومنها ما أعلنه أحد مترجمي رواية انكليزية ، اذ قال : «لاعجاب باريس ، كنت اعتقد ان يلزمها ثوب ترجمة فرنسي» (١٧٤٥) ، ومنها ترجمة «انتصار الموت» لغابريال دانوتزيو (١٨٩٦) ، الى الفرنسية ، اذ تم منها حذف جميع الصفحات عن نيته !

هذا بعض «الخيانة» في الترجمة . فهل كانت قسرية أم ضرورية ؟ والجواب عن هذا السؤال يفتح الطريق الى دراسات يجب أن تكون سيكولوجية اكثر منها تاريخية .

ب - الوسطاء الأدبيون :

١) الأشخاص : بين المعنيين بالأدب ، الذين كانوا جسراً بين حضارتين أو اكثر ، لا عجب أن نرى منهم مواطنين من أمة هي نفسها مرصودة على هذا الدور ، بسبب موقعها الجغرافي والثقافي . من أولئك ، مثلاً : بونستين ، سيسموندي ، وادوار رود ، وهم سويسريون . وثمة دراسات مكتوبة عنهم وعن غيرهم ، لن نسميها جميعها ، بل نكتفي بواحدة تلقي أضواء على أهمية هذه الناحية في الأدب المقارن .

هذا مثلاً شارل دو فيلرز (١٧٦٥ - ١٨١٥) . ابن جاب في

بولاي ، وهو كان - حتى السنوات الأخيرة من فترة قبل الثورة - موظفاً مثقفاً في دائرة المدفعية ، وبحيا كما لاكلوس ، حياة حام ريني . وقامت الثورة فهاجر . وبعد أشهر في جيش الملك ، انتقل الى هولندا فألمانيا . عام ١٧٩٦ ، كان طالباً في غوتنغن ، من حيث تخرج خبيراً بالألمانية . وهذا القدر ، اختطته له دوروثي شلوزر (ابنة استاذة في التاريخ) وهي دكتورة في الفلسفة ، وبقيت عشيقته حتى بعد زواجها من «دورود» ، فجعلته على ادعاء حتى السخافة . لكن غوته يذكره قائلاً : «فيلرز شخصية مهمة في موقعها بين الألمان والفرنسيين» . وهو ، في الواقع ، اهتم بادخال الافكار الالمانية الى بلاده . وأول ما فعل : ترجمة «فلسفة كانط» (١٨٠١) . لكنه لم يفلح كثيراً . وبعد ثلاث سنوات ، عوّض عن ذلك بالتطرق إلى أفكار لوثر . وكان لأعضاء المؤسسة اللوثرية المعادين للنهضة الكاثوليكية ، أن يهتموا كثيراً بكتابه «بحث حول روح حركة لوثر الاصلاحية وتأثيرها» . لكن فيلرز لم يكن محبوباً من الجميع ، كما كان غير مرغوب فيه لدى أوساط بوناپارت ، فعاد إلى ألمانيا حيث مات عام ١٨١٥ - وهكذا يكون فشل في مهمته ، أو كاد يفشل لو لم يلتق مدام دو ستال .

فهذه ، لم تكن تعرف الأدب الالمانى ، ولا كانت تريد أن تعرفه . ولها ، كما لجميع الفرنسيين ، لا يمثل غوته إلا كونه «صاحب وورث» . لكنها ، عام ١٧٩٩ ، قرأت مقالات فيلرز الصادرة قبل

سنوات ، في «مشاهد الشمال» إحدى جرائد الجاليات الفرنسية . وكان في تلك المقالات ، يكتب عن كانط وكلوبستوك ، وعن التفوق الديني والفلسفي لدى الألمان . يقول جان ماري كاريه : « معه ، بدت ألمانيا بلاد الروح كما هي بلاد الفكر» . عند قراءتها ، اهتمت مدام دو ستال بها كثيراً ، ثم راحت ترأسل كاتبها ، إلى أن قررت القيام برحلة إلى ألمانيا . ولما كانت تحب الأفكار متأنسة ، طلبت من فيلرزان أن يكون دليلها ، وان يلاقيها في مكان بين كويت ولوبيك ، فتحدد المكان في ميتر ، ودام اللقاء خمسة عشر يوماً . لكن كورين ، المذهولة عند اكتشاف دوروي عشيقه «دليلها» إلى الفكر الألماني ، قررت المضي وحدها في اكتشاف ألمانيا (تشرين الثاني ١٨٠٣) .

هكذا كانت ، عاصفة ، نهاية رواية بالرسائل ، لكن نتائجها الأيديولوجية كانت مهمة وذات نفس طویل . ويكون لأحد المتعاضمين ، بعدها ، ذلك «المدعي السخيف» ، ان يكون ساهم لدى إحدى أكثر نساء عصرها تأثيراً وألقاً ، في توعيتها على الثقافة الألمانية ، مما أدى إلى وضعها كتابها الشهير «عن ألمانيا» (١٨١٤) ، الذي سحر ثلاثة أجيال من الفرنسيين بذلك «السحر الألماني» .

وإذا ، حتى أيام بسمارك وسادوفا . بقي أدباء فرنسيون كثيرون يؤمنون بألمانيا ريفية طوباوية وفيلسوفة ، فالفضل يعود إلى مدام دو ستال ، وهذه تدين بذلك إلى عشيق دوروي شلوزر . السبب صغير

والتأثير كبير: وهذا ما يوضح الاهتمام التاريخي بالدراسات العميقة التي يخصصها الأدب المقارن لشخصيات طمرها النسيان، لكن لها بعض أهمية.

٤) البيئة: تأثير فيلرز، فريد في ظاهرته. فالأشخاص المتوسطو الأهمية أو الرديثون، لا يؤثرون إلا جماعياً. الأهم: دراسة البيئة (أو البيئات) التي كانت جسراً بين أدبين، لأنها تطرح مسائل سيكولوجيا فردية، ومنها تصل - حكماً - إلى سيكولوجيا الجماعة. وفرنان بالدنشبرغر، ساعد، في كتابه، على تحديد طبيعة تلك المسائل، في إظهار الأهمية التي لدراسة البيئة، أوساطها الأدبية أو الفكرية أو الدينية.

لاتباع «حركة الأفكار في الجالية الفرنسية» من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥، يلزم تفكير مطواع تمييز التفاصيل التي تفرق مهاجر الفترة الأولى، عن مهاجر عام ١٧٩١ أو ١٧٩٢، وجميعها تفاصيل مخزونة في محفوظات ومكتبات أوروبا كلها، إذ لم يكن الأمر في بيئة موحدة متجانسة، بل في جمع من التكتلات المنقسمة بالدرجة والآراء. وهذه «مذكرات ما وراء القبر» تظهر أي هوة كانت تفصل، في لندن، بين البريطاني الشاب الفقير، والارستقراطية الثرية في البلاط أو الكنيسة. من هنا، انقراض قدر مماثل على المهاجر الطوعي لعام ١٧٨٩، كما على المنفي من حكومة المديرين (في

فرنسا) : العيش في الخارج ، والتأقلم بالمعادات والثقافة والانطباعات الانكليزية أو الألمانية أو الروسية . من هنا ، كان يجب ، مع الحذر الشديد ، التمكن من استخلاص عظات المنفى للمنفين انفسهم ، ومن خلالها لفرنسا كلها . وهنا أهمية كتاب فرنان بالدنشرغر . ففيه الاسباب المباشرة للهجرة ، وأهمها : انكسار الحياة الاجتماعية الكانت سائدة في القرن الثامن عشر ، والتي لم يجدها الفرنسيون المهاجرون في أي بلد أوروبي ، لأن فرنسا ، عهدئذ ، كانت في عليا درجات التمدن والمجتمعية والتواصل الفكري . وفي المقابل ، وهم باتوا «مكتشفين رغماً عنهم» ، اكتشفوا أشكالاً جديدة للحياة ، ونهجات جديدة روحية أو أدبية ، فكان شديداً التأثير المسرحي على الكلاسيكية الفرنسية . البعض نشلح بين ما تركه وما اكتشفه ، كما شاميسو الذي أغنى الأدب الألماني برأئته «بيتر شليميل» دون التحول عن فرنسا التي عادت اليها عائلته .

على أن للعصر ظروفًا مستجدة فجائية تساعد على التجديد : فكتاب «عبقرية المسيحية» ولد في لندن ، وجوزف دو ميتر حلم بالتبوقراطية على ضفاف النيفا (نهر في روسيا) ، ومدام دو ستال تاهت على دروب أوروبا حيث تزهد أبطالها ، فيما بنجامان كونستان يبحث عبثاً ، مثلها ، عن الحرية السياسية والسعادة العاطفية . وإلى هذه الاسماء الكبيرة ، ثمة أخرى أقل شهرة ، كما ريفارول وكميل جردان وفيلرز ، وجميعهم كان لهم تأثير كبير لدى خروجهم من

فرنسا . واذا لقاء دو ليل وكلوستوك في همبورغ لم يشر لمستقبل الشعر الفرنسي نتائج مهمة فهدام دو ستال لولا فيلرز لم تكن اكتشفت ألمانيا أو انها كانت أحبها أقل . ولولا انكلترا ، لم يكن شاتوبريان اكتشف ميلتون والمسيحي المثالي واولئك المنافحين عن المسيحية الذين يظهر تأثيرهم في صلب نظريته الكاثوليكية .

ذلك المنفى الاغترابي ، لم يكن فقط اطاراً لكل هذه الظاهرة الضميرية ، والمناخ المواتي لكل التأملات التي انتجت قدراً مهماً من الفكر المناهض للثورية ، فجوزف دو ميتر وبونالد وشاتوبريان ما كانوا ليتبنوا - كما فعلوا - دفاعاً عن القرن الثامن عشر، لولا تجربتهم الخارجية الأجنبية (الأوتوقراطية الروسية ، والنظام المعتدل في انكلترا) . بل كان [المنفى الاغترابي] مساهماً كبيراً في تهيئة مستقبل فرنسا الروحي والسياسي والأدبي .

وهو هذا ، كل هذا ، ما أدى الى الرومنطيقية : الاهتزازات الدينية ، اكتشاف التنوعات الوطنية ، وقيام قيم أدبية جديدة (خاصة انكليزية وألمانية) . وفي خاتمة تحليلاته الطويلة والمتنوعة ، استطاع فرنان بالدنشيرغر أن يستنتج : « قامت صوفية تواجه المجهود العقلي الذي للقرن الثامن عشر الفرنسي الراحل ، وتدخل عناصر جديدة في الروح الفرنسي » . وصحيح أن الهجرة ليست وحدها التي غذت كل هذه العناصر ، (فالرومنطيقية الفرنسية - من الأب بريفو

إلى برناردان دو سان ييار- لها جذور وطنية فرنسية). لكن المهاجرين سرّعوا تسمير الموروث الفرنسي فما وأثمر.

من جهة أخرى ، راح مقارنون آخرون يتعلقون بتصوير بيئات أقل توزعاً في المكان والزمان ، كالبلاطات والصالونات الأدبية وجاعات الأدباء . وهذا ما أظهره هنري بيداريدا ، في كتابه عن «بارما (مدينة ايطالية) وفرنسا» (١٩٢٨) . حول دور البلاط اللدوقي في القرن الثامن عشر. وهذا إكنغتون يدرس «العلاقات المجتمعية بين فرنسا وانكلترا إبان عودة الملكية» (١٩٢٩) حيث : عظمة «النوع الانكليزي» ، الروابط العائلية ، الزيارات . مما لم يعد غريباً عن الحياة الثقافية ، حتى أن برليوز وفينيسي ولامارتين كانوا متزوجين من انكليزيات .

اذن ، تم ملياً درس الأشخاص والبيئة ، أي الوسطاء بين كبرى الآداب الغربية .

والى جانب الدراسات المخصصة ، كما للانكليزي هنري كراب روبنسون (ناشر الأدب الألماني) أو لإميل مونتيغو (ناشر الأدب الانكليزي) ، نجد كل الدراسات القيمة تؤدي إلى إبراز دور الوسطاء بين الثقافات ، وهم المترجمون (الأشخاص) والبيئة (المجتمعات الكوزموبوليتية). لكن الأدب المقارن يتبع ، في استمراره ، تطور الأدب وحده . والقرن العشرون ، الكوزموبوليتي أكثر من سواه ، لم

يتم درسه بعد كما يجب . من هذه الزاوية . فالى جانب انتشار
الترجمات كما لا من قبل ، لم يخفَ دور الوسطاء . وبقى ، ثمة ،
أشخاص يؤثر عملهم في توجيه بلدانهم نحو التطلعات الأجنبية . من
هذه ، كتابات آدمون جالو أورنيه شوفال عن رومان رولان ، التي
تشير في وضوح إلى كيف يجب ان تكون الدراسات عن الأدباء
المعاصرين من موروا الى أراغون .

ج - الرحالون : حكاية الاسفار ، هي حكاية الحماسة اكثر مما
هي حكاية الدعاوة . وخاصة حكايات الرحلات الأدبية . ففولتير
ومونتسكيو والأب بريفو ، عادوا من انكلترا متأكلزين . ومدام دو
ستال وميشليه وهوغو وجدوا في ألمانيا كل "فضيلة وكل شعر . وعلى
ضفاف ليمان (بحيرة أوروبية) التقى بايرون ظل جان جاك الذي زاده
كرهاً بأمته . و«هين» ، في باريس ، أحب فرنسا ولعن بروسيا .
ثمة تاريخان وكتابان : (١٧٣٤ : رسائل فلسفية) و(١٨١٤ :
عن ألمانيا) ، ومنها يبدأ التأثير في فرنسا ، من انكلترا وألمانيا . لكن
المقارن نادراً ما يهتم لرحالين من هذا الصف ، منفعلين . بل هوينحو
إلى من تأثرهم كان أقل وتأثيرهم أكثر : فهذا ميشليه المتصومع عام
١٨٢٨ في مكتبة بون الجامعية ، يصرح للطلاب بعد ٢٣ يوماً من
«رحلته في المكتبة» : «ليست ألمانيا ، بعد ، إلا سذاجة وشعراً وما
ورائيات» ، وهو تأثر واضح بكلام مدام دو ستال . وهو هنا . ما

حث شاتوبريان على كتابه «الرحلة من باريس الى اورشليم». واذا
تاريخ الرحلات هو تاريخ الحماسة، فهو أيضاً تاريخ تكرار ما يقال.
وليس سهلاً دائماً اكتشاف ما استعاد الرحالة أو كُتِبَ، ولا كيف تم
الدعوات الوطنية. واذا صحيح ان أتباع ميشليه في انكلترا مع جان
ماري كاربه، أو غوته في ايطاليا مع ميشيا، يؤدي إلى فهم أكثر
لميشليه وغوته، لكنه يؤدي أيضاً إلى فهم نظرة الفرنسيين الى
انكلترا، والألمان الى ايطاليا. (راجع الفصل الثامن من هذا
الكتاب).

فالرحالة الأديب قلما يكون داعياً لبلاده في الخارج. من هنا ان
تورغنينف لم ينشر قط الأدب الروسي في فرنسا. حيث عاش
طويلاً، بينما شخصيات أقل شأنًا منه، كان تأثيرهم كبيراً على
محيطهم عن بلادهم كما تأثير الانكليزية ماري كلارك في باريس،
والألمانية كميليا سلندن. ووضعت عن كليهما دراسات مهمة.

ثمة خطر يترصد الدراسات المخصصة للرحالين: السهولة.
فن مجموعة استشهادات ولوحات ونكات. يمكننا وضع كتاب مثل
لكنه لا يأتي بجديد. لكن الملاحظات الدقيقة على نص، والتحقيق
في برنامج رحلة، والبحث عن مصادر مكتوبة، ومقابلة
الشهادات، تؤدي، وإن هي تستغرق وقتاً طويلاً، إلى اكتشافات
أدبية مهمة. والنتيجة مضمونة. والمعلومات معروفة: عن نص،

ورجل وبلاد وعصر. ودراسات كهذه ، تستبعد اندثار الدراسات
التأثرية ، لأنها عميقة المراجع والكتابة. وقبل البدء بدراسة كهذه ،
يجب تكثيف الكتب الموضوعية في المنحى نفسه ، مثل : «الرحلة من
باريس الى اورشليم» للملاكيس (١٩٤٦) و«رحلة فولتاي إلى مصر
وسوريا» بلجان غوليه (١٩٥٩).

وهذا ميدان لم يتم اكتشافه بعد بالتساوي كما ونوعاً. من هنا .
التفاوت الهائل بين المؤلفات والمؤلفين. بين الأدوات وعناصر
الكوزمبوليتية. ويعود السبب الأول في ذلك ، إلى تحديد أهمية
معرفة لغة الادباء أو مجموعة الأدباء الذين يتم درسه. فالتقل عن
الترجمات لا يكفي. والأخذ عن المجلات - وإن المتخصصة منها - لا
يكفي. ولم تقم حول هذا ، دراسات قيمة وإن كانت الكتب حوله
كثيرة. وادق الدراسات حول الرحلات والرحالين ، كانت «رحلة
الى ايطاليا» لمونتاني ، تحقيق شارل ديديان (١٩٤٦). وكتاب
«الرحالة» للملاكيس. وأفضل الوسطاء : فيلرز ، وسيسموندي.

والمطلوب في حالة كهذه ، تنظيم الابحاث يجمع المكتشفات
وتبويبها ، وفرزها بحسب الأهمية. وإذا المطلوب ، تقدير النتائج
المرجوة ، فيجب اعتبار حداثة عهد الأدب المقارن. والنتائج .

- معرفة معمقة لمجلات كثيرة (مثلاً : «السنة الأدبية» التي
درسها بول فان تينغيم).

- دراسة دقيقة لعدة رجالين كبار: غوته في ايطاليا . مدام دو ستال في ألمانيا وشاتوبريان في الشرق ، وتين في انكلترا . الخ ...
- تقييم الدور - غير المنظور - الذي للوسطاء الذين اخذت اختيارهم وآراءهم ، ثلاثة اجيال . مثلاً : فيلرزين الثقافة الألمانية وفرنسا .

وفي جميع هذه الحالات ، انتسبت الوقائع المكتسبة . إلى التاريخ الأدبي . ودراسة الوسطاء الكوزموبوليتيين ، وان غير كافية ولا منظمة . تبقى منفعتها على أهمية .

الفصل الرابع

الأنواع ، المواضيع ، الحالات

١ - الأنواع

ان مسألة الأنواع الأدبية ، ما زالت مطروحة في كل العصور (راجع الفصل الثاني من الكتاب) ، ولا يمكن أن يتخطاها الزمان . وان هي لم تحظ باهتمام المقارنين ، فالسبب في تعامم فردينان بروننير غير الحذرة (راجع كتابه «تطور الأنواع الأدبية») ، والطابع العاق لدراساته . فليس ما يتعلق بالأدب المقارن ، كما التراجيديا الكلاسيكية أو الرواية الريفية . والملاحظ أن انواعاً أدبية كثيرة لم تكن موضوع دراسات مطروحة . واذا درست ، فبدون ذكر تأثيرها على الأديب بل اكتفاء بالكلام الظاهر على القواعد المتبعة أو التعديلات الطارئة . وكان فاليري يقول عن العروض والقصائد الموزونة المقفاة . انها «اصطلاحية تؤدي إلى الضروري» . وهذه العبارة تنطبق على جميع الأنواع ، والمؤسف أن مؤرخي الأدب لم

يضمونوا على تأثير الشكل الأدبي في الذي يتبناه أو يفعل فيه .
وثمة مؤلفات حاولت سرد التاريخ المقارن للأنواع الأدبية .
وجميعها ، في فرنسا ، تعود الى بداية هذا القرن ، أي إلى فترة سابقة
لفقدان الثقة الذي وقعت فيه مفاهيم النوع الأدبي . ومنذئذ ، ما عاد
إلا الخبراء الاجانب يتابعون هذه الدراسات التي بينها الكثير مطبوع
في الفرنسية وتحت مراقبة المدرسة الفرنسية .

فماذا عن هذه الأنواع ؟

١ - المسرح : كان له الكوميديا الإسبانية اشعاع امتد على
كل أوروبا الغربية . وتأثيرها على المسرح الفرنسي من هاردي الى
راسين ، درسه مارتينانش عام ١٩٠٠ ، وهو يتمثل في استعارة
المواضيع والمواقف ، دون التطرق (إلا نادراً) ، إلى استعارة الشكل
الاسباني . بينما هذا الأخير ، في ألمانيا ، يثير الرومنطيقين الألمان .
أوبرتران أظهر ما أخذ تيبك عن كالدرون أولوب دو فيغا ، في كتابه
« تيبك والمسرح الأسباني . ١٩١٤) . ولاحقاً ، فان براغ راح يبحث
في المسرح النيرلندي (ذي اللغة الألمانية) ، من القرنين السابع عشر
والثامن عشر ، مدى استعارة نوع « الكوميديا الإسبانية .
(١٩٢٢) ، وهذه مسألة عاجلها ، في شمول ودقة ، أكثر المقارنين .
وإذا اخذنا الترجيديا الكلاسيكية التي عرفت ، هي الأخرى ،
اشعاعاً أوروبياً ، نلاحظ انها لم تثر اهتمامهم كثيراً . وان هي كانت

عمور كتاب بويتر (١٩٢١) عن تأثير المسرح الهولندي في القرن السابع عشر. ولكن، خارج تلك الدراسات الجزئية والمهمة في غالبيتها، لم يتم درس هذه المسألة بعد في العمق: لماذا التراجيديا ذات النمط الفرنسي لم تستطع شق طريقها في انكلترا؟

في الفصل التالي من هذا الكتاب، سنظهر بعض الدراسات الكثيرة للمخصصة لمسرح شكسبير، وقليلها هو الذي يهتم بتاريخ الانواع الأدبية. وانما سر النوع الأدبي، هو الذي كان الرومنطقيون الفرنسيون ينشدونه في الدراما الشكسبيرية. وهنا مادة دراسة مهمة لمن يود تكلة كتاب فرنان بالدنشبرغر.

وبين جميع المسرحيين الفرنسيين، يبقى مولير هو الأكثر براعة في تخطي الحدود. وتأثيره لم ينحصر فقط في الأطر الكوميديّة.

٢ - الشعر: ظل الشعر الغنائي والملحمي ضمن الإطار الموروث من العصور القديمة اليونانية اللاتينية. انما بقي الشكل مستعاراً من أدب أوروبي: ايطالي أو ألماني... تاريخ هذه الاستعارات، هو من الأدب المقارن، وتم درسه في عمق. من هنا ما يظهره بول فان تينغهم عن نجاح المواضيع الريفية وعن شكل القصيدة الغزلية. وفي الشعر، كما لا في سواه، يعتبر الأدب المقارن ان القواعد المألوفة في ناحية، والشاعر في أخرى، ويلاحظ مدى امانة الشاعر لها، دون تحديد مدى تأثير الشكل على الخلق الشعري.

٣ - الروايات والاقاصيص : بين الانواع الأدبية النثرية ، بقيت الرواية هي اكثر الأنواع الادبية استثنائاً بالأدب المقارن . ونشأ عنها بعض الأنواع المتفرعة في أوروبا : الرواية السوداء ، الرواية التاريخية ، الرواية الريفية .

هذه الأخيرة ، بدأها في سويسرا جيريمياس غوتيلف الذي أصدر عام ١٨٤١ رواية «أولي الخادم» . وانتشرت الصيغة الجديدة هذه بعد أقل من عشرين سنة ، في كل الغرب . فظهرت : «فاديت» لجورج صاند (١٨٤٨) ، و«روميوجوليت في القرية» لغوتفريد كيلر (١٨٥٦) و«أدم بدء» لجورج اليوت (١٨٥٩) ، وجميعها شرحها بول فان تينغيم عام ١٩٣٢ ، ودرسها مفصلة ، في ما بعد ، رودولف زلويفر عام ١٩٤١ .

أما دخول الرواية السوداء الى فرنسا ، فوصفتها جيداً أليس كيلن عام ١٩٢٤ ، لكن الرواية التاريخية حظيت أكثر من غيرها بالدراسات المقارنة .

هذه المسألة ، عالجها لويس ميغرون في كتابه «الرواية التاريخية في العصر الرومنطقي (١٨٩٨ - ١٩١٢)» . وكانت في الرواية الفرنسية عدة عناصر تاريخية ، بقيت تنتظر ولترسكوت حتى تنفجر في نوع روائي جديد يرتكز ما سوى على التاريخ كلياً . ومما هباً لسكوت هذا التفجير ، براعته في السرد ، ثقافته ، وطنيته

الاسكتلندية القوية ، وذوقه في القديم . وعرف الشهرة والمجد . وبعد سنوات من التردد (١٨١٤ - وحوالي ١٨١٧) تبت فرنسا ولتر سكوت ، بعد اسكتلندا وانكلترا . وكان لسفره إلى باريس عام ١٨٢٦ تأثير كبير .

لم هذا الحماس ؟ في قصصه وجد الرومنطقيون الفرنسيون ما كانوا يبحثون عنه من نكهة ، رغم رداءة الترجمة الفرنسية ، مما لم يجدوه قبلاً في الأدب الفرنسي ، (نستثنى شاتوبريان) . فحين ولتر سكوت يبدأ بالسرد ، يتفخ حياة في الاشخاص كما في الوصف ، وفي الخبر كما في الحوار . حاول الفرنسيون تقليده وكان الفشل الذريع ، لأن النوع كان جديداً ، والمقلدين سيئين ، والفرنسيين غير معتادين بعد على « تحريك شخصيات مزيفة في كادر طبيعي » . حتى جاء الفرد دو فينيي في « الخامس من مارس » (١٨٢٦) ، وبعده بلزاك في « الثائرون » (١٨٢٩) وبروسبير ميريميه في « تاريخ زمن شارل التاسع » (١٩٢٩) ، وفكتور هوغو في « نوتردام دو باريس » (١٨٣١) ، وحاولوا تطبيق نوع الرواية التاريخية في فرنسا . ولكن بين رائعة فينيي ورائعة هوغو ، ما إلا ٥ سنوات ، وهذه الأخيرة كسرت النوع بشهرتها ونجاحها المدهش .

كيف تفسر هذا « الكسر » ؟

يوضح لويس ميغرون ، هنا ، الى أي حد ، من الضرورة أحياناً

درس تأثير النوع الأدبي لا الاكتفاء فقط بدرس الأديب . فما الذي أضفاه سكوت ؟ قليل من الأفكار انما الكثير من التكنيك . والأدباء الذين لم يعرفوا تقليده أو الأقلمة مثله ، سقطوا حيث نجح . ولكل منهم ميزة تنقصه مما مجموعها يكون براعة سكوت : فهذا فينيسي لا يعرف ، أو يعرف أقل منه ، كيف يحرك الجماعات الضرورية لإعادة حية للماضي ، وهذا بلزاك يختار موضوعاً حديث العهد ومقرب المكان من القارئ لكي لا يشعر بغربة عن الرواية . وهذه شخصيات ميريمه تنقصها الحياة ، فيما عند هوغو مبالغة في الانارة تقتل الانارة وتبعد حيوية التحرك عن الأشخاص . على ان ولتر سكوت ، وان اقل شاعرية من فكتور هوغو وأقل روحانية من ميريمه واقل زخماً من بلزاك واقل عمقاً من فينيسي ، وفق في ما هم فشلوا فيه : العقدة والتاريخ ، المثير والحيوي ، الجماعة والبطل ... والرومنطقيون ، لانهم لم يستوعبوا أو لم يطبقوا مسار نجاح سكوت ، كانوا مضطرين الى إبعاد الرواية التاريخية عن الأنواع الأدبية الشعبية . وهذا ما فعلوه ، فعلاً ، فتلقفها الكسندر دوماس (١) .

من هنا نستنتج كما كانت غنمت مفاهيم الأدب المقارن لو عادت إلى تاريخ الأنواع الأدبية . وآخر ما صدر في هذا المجال :

(١) وهذه الخلاصة تنطبق على أعمال سابقة لدوماس مثل «كونسويلو» و«البيت

كتاب أميركي حول « جذور وتطور التراجي كوميديا في إيطاليا وفرنسا » وانكلترا، لهرتريك (١٩٥٥) ، ودراسة للعالم الروسي رزوف الذي ، بعد ٦١ عاماً من ميغرون ، درس « الرواية التاريخية في فرنسا مع العصر الرومنطقي » (١٩٥٨) ، وفيها ما يشير الى تجديد الأهمية المعطاة للمقارنة في صلب الانواع الأدبية .

٢ - المواضيع

حظّر بول هازار على المقارنين دراسة المواضيع لأنه كان يرى فيها مادة أدب لا يبدأ في تقييمها إلا على ضوء الانواع الأدبية والشكل والأسلوب . على ان تاريخ المواضيع ، هو الخط الذي انتهجه العلماء الألمان الكانوا يساهمون في مجلة ماكس كوش . وهذا الخط ، في فرنسا وفي إيطاليا ، أثار دراسات مهمة . ولكن ، في كتاب يرمي إلى اقامة جدول أكثر مما إلى بناء نظرية عامة ، يجب ، رغم موقف بول هازار ، اعتبار تلك الأعمال التي تغوص على المواضيع .

١ - النماذج الفولكلورية : بين الفولكلور والأدب ، ظهرت آثار كثيرة . وحوها دراسات مهمة ، تعتبر النموذج قبل نوعه الأدبي ، لذلك لا يمكن أن تفيد الأدب المقارن . صحيح أن من الطبيعي ان يستعير شاعر ، أو روائي ، من التقاليد الشعبية ، موقفاً أو شخصية (فوست مثلاً) يعرف أصلها الفولكلوري . لكن معرفة الفولكلور ، ان كانت في هذه الحالة ضرورية للمقارن ، لا تتعلق به أكثر مما

تتعلق بالمفاهيم التاريخية التي عليه امتلاكها ليغوص ، أكثر ، في نص لفولتير أو بايرون .

٢ - المواقف : الى التاريخ الأدبي ، تتسبب ، أكثر ، دراسة المواقف الدرامية والملحمية أو الرومنطيقية . ومرة درس أحد العلماء «ولادات الأدب» . وهذه الحالة تبدي خطر هذا النوع من الدراسات : فالغرق في مجرد المقابلة ليس هو أساس الأدب المقارن . كما قلنا مراراً . ومن الطريف والمهم استخراج الفروقات الشخصية أو الوطنية في معالجة موقف واحد يكون هو المحرك الموحد الجامع بين الاختلافات .

وأهم الأعمال في هذا المجال ، تتوجه الى نماذج رمزية استعارها كثيرون من الأدباء في آداب كثيرة : فنموذج الزاني أو المجرم رغمًا عنه ، هو موقف عرفته التقاليد اليونانية مع أوديب . من هنا ينتقل الاهتمام من الموقف الى الرمز ، رمز الذي يأثم دون قصد . هكذا ، من سوفوكل إلى أندريه جيد ، مروراً بكورناي . يمكننا تتبع التحولات التي في هذا الرمز . وهكذا ، تحول طابع الدراسة إلى معالجة واحد من تلك النماذج الاسطورية ، التي سنعالجها بعد قليل .

٣ - النماذج العامة : انه من عمل الأخلاقي أكثر منه عمل المقارن ، البحث في كيف الشعراء أو الروائيون في فرنسا أو ألمانيا . في القرن التاسع عشر ، ابرزوا الجهندي والبخيل والأب والمقامر والماجن .

والأدباء الذين حاولوا درس المواضيع العامة ، يقيمون غالباً مقابلات بسيطة وبخفة . دون إظهار أي تأثير ولا مصدر . وأحياناً تصدف أن يتناول أديب . مصححاً أو مميزاً ، رسم نموذج عام عن أديب أجنبي ، كما البولوني لاديسلاس ريمونت كتب « الفلاحون » و« الأرض » ، دون أي تقابل بين الكتابين . فيما النماذج الوطنية لها أن تصوى على العلاقات الروحية وحتى السياسية لشعبين . وسرى في الفصل الثامن ، الحصة التي يتناول اليوم ، من ذلك ، المقارنون .

٤- النماذج الاسطورية : حتى الآن ، قد تكون دراسة المواضيع بدت على هامش الأدب المقارن البحث . وهي تدخل فيه حين تأخذ النماذج الكبرى التي حاول الكلام عليها أدباء أوروبا قاطبة :

- شخصيات توراتية : تفسيرها . دون استهلاكه ، يتجدد دائماً ، منها الهيبولي الرومنطيقية لقائين لدى بايرون أو هوغو ، ومنها شيطان ميلتون أو فينيسي أو كاردوتشي .

- شخصيات قديمة : من اليونان قبل ٢٥ أو ٣٠ قرناً ، ولا تزال تحافظ على غناها الرمزي : هيلين ، ايفيجيني . اوليس ، انتيغون ، الكتر ، كرون ، وجميعها استعادها على مر العصور : راسين وغوته وتينيسون واونيل وجيروودو وآنوي .

- شخصيات مستقاة من التقاليد الوطنية : وهي من الفولكلور

أومن التاريخ ، وصلت من الصدفة او من أديب ذي شهرة عالمية :
من هذه الشخصيات ، الدكتور فوستس ودون جوان تينوريو . ومع
كبار كما مارلو وغوته وفاليري ، تدور حكايات فوست ، ومع مولير
وغولدوني وبايرون حكايات دون جوان . وهنا . لا تزال في الميدان
الأدبي ، وعلى أعلى مستويات الأدب الأوروبي . ومن الطبيعي أن
يهم المقارنون بتلك الشخصيات .

عن فوست وحده ، وضعت دراسات كثيرة منذ ١٨٤٤ .
خاصة في ألمانيا . ذلك ان في ألمانيا ولدت ونمت تلك الاسطورة ،
في ساكس (القرن السادس عشر) . حول الدكتور فوستس . وهو
خيميائي قديم . هنا ، يتدخل الأدب المقارن ليضوئ على أن
انكليزيا ، هو مارلو ، أعطى للدكتور فوستس الحياة الأدبية ، وأثار ،
في ما بعد ، مزاحمة ليسنغ وغوته ولينو على شخصية فوست . ولا
تنسى ، هنا ، دور المترجمين (جيرارد دو نرفال لأعمال غوته) ودور
المقلدين فاليري كاتب ، هو الآخر ، فوست) . بيار لا سير ، رافق
شخصية غوته في فرنسا . وجنيفاف بيانكي قدمت عن الاسطورة
- عبر أربعة عصور - نظرة عامة كانت مغلوبة قبل كتابها (١) .

أما شخصية دون جوان ، فبعد الإيطالي فارينيلي . قام فرنسي :

(١) من أبرز ما صدر في هذا الموضوع : «فوست» لشارل ديديان ، واطروحة
دايزني في عنوان «وجه فوست في القرن العشرين» (١٩٦٧) .

جاندارم دو بيفوت وأقام جدولاً مفصلاً لتاريخ هذه الشخصية (١٩٠٦ - ١٩٢٩). في جزء أول من «أسطورة دون جوان»، قدم لمحة عنه من المنابع حتى الرومنطيقية. ومنذ بورلادور، المنسوب الى الراهب الاسباني تيرسو دو مولينا (حوالي ١٦٣٠) اجتمعت جميع معالم تلك الشخصية ومواقفها: الجحون، التدخل الفوطيبي، الزندقة. وهذه المواقف تتغير بين ايطاليا وفرنسا وانكلترا والمانيا وهولندا، بتغير مزاج الكاتب وتغير المناخ الفكري والخلقي في بلاده...

فهذا دون جوان مولير، خادع دائماً، ويشد الجمهور اكثر من غاوي ألفير. وفي البندقية، خلال كرنفال ١٧٣٦، يصير دون جوان غولدوني شخصية أخرى تضيع دون أجماد، وتمهد لكازانوفا في ما بعد. بينما دون جوان بايرون على حدة بين الايطالي والفرنسي، إذ يلعن نخب المجتمع ويعلن حقوق الحب المتحرر، والشاعر يؤلفه في تصويره.

وتتوالى التصاوير حتى اليوم: ولا يزال دون جوان رمزاً، والدونجوانية موقفاً روحياً، يناقشها الجميع من محبين ولاعنين. وتبقى حكاية دون جوان، رغم الأقاويل المحاكة حولها. أخاذاً جذبت كتابات رائعة، الى جانب من ذكرنا، من بوشكين وموسيه ولينو وبودلير، وليونشتين في دراسته «تحولات الهبولي عند دون جوان» (١٩٥٩).

وتتسع دراسة جاندارم دو بيفوت حتى دراسة تحليلية عن
الدونجوانية بصرف النظر عن الوطن والبطل الذي منه . لكن نقطة
هامة نتوقف عندها هنا . وهي مهمة في مجال دراسة المواضيع .
إذا استطاع الكاتب . عابراً حدود موضوعه المعروفة ، أن يحكي
في «الدونجوانية خارج أسطورة دون جوان» . في هذا التوسع
اعتراف لاواع ، أكثر منه انحرافاً ، إذ القدر الأدبي لمفهوم معين من
مفاهيم الحياة ، يكون يبدو له ، في النهاية ، أهم من دراسة تتمحور
حول اسم دون جوان . فالتعلق باسم أسطوري نموذج . أكان دون
جوان أوفوست . مغامرة لا تخلو من مخاطرة ، في الوصول الى تعداد .
غير منضبط ولا دقيق . لمختلف الأطر الروائية والشعرية والمسرحية
للشخصية الأسطورية . والأفضل ، كما كان يرى جان ماري كاريه ،
إهمال كل عمل خال من الطرافة ، وتجميع - حول وجه
واحد - التجسيديات المتجاورة لأمل واحد أو قلق واحد . في تلك
الشخصية . أي من الأفضل ، دراسة الدونجوانية على دراسة دون
جوان ، واكتشاف فوست أو مانفرد أو قاين . في وجوه مختلفة ،
ضمن إطار ثورة الفرد أو ثبوته ، هكذا ، يغنى تاريخ الأفكار
وتاريخ الأدب في وقت واحد . فالشخص الواحد . ليس موضوعاً ،
ومن المفضل - انطلاقاً من هنا - اتباع فكرة أو طريقة شعور أو نمط
حياة ، من خلال أبطال مختلفين إنما متقاربون ، عوض الجمع تحت
وحدة اسم واحد ، بين أوديب أو بروميثيه ، وبين نظريات وآراء لا

يجمعها جامع . فاختيار الدراسة لا يقل أهمية عن الموضوع المطروح للدرس .

٥- شخصيات تاريخية : تلك الاحترافات ، وهي لا تقلل أبداً من أهمية الأعمال التي ذكرناها . لا تعود ضرورية ، حين تتمحور الدراسة حول شخصية تاريخية عوض الشخصية الأسطورية . والسبب . لا في كون الدارسين انتقلوا من الاسطورة إلى التاريخ ، بل في أنهم يخرجون شخصيات متناقضة . فهذه ، مثلاً ، ماري ستوارت ، كانت ملكة متقلبة وشهيدة . وكم من المسرحيين ضوأوا على استشهادها حتى تكاد تمحي صورة تقلبها ورعونتها. وهذا نابوليون ، على حياته ، كان يتخذ طابعاً ملحمياً ومعنى ساوياً أو شيطانياً . وقراء بيرانجيه ، ودو باربييه وهوغو وروستان ، يعرفون جيداً ما آلت إليه الاسطورة النابوليونية بعد موت الامبراطور . وماريا دل ايزولا تبين أهمية ذلك في «الشعر الايطالي بدءاً من ١٨٢١» (١٩٢٧) . ولم يعد غريباً أن نابوليون يجسد الاستبداد تماماً كما الروح الثورية . لكن مجموعة الاختصارات ، والتجملات والتناقضات ، لا تمنع أن تكون الأهمية محصورة في الشخصية الواقعية وهي في أساس كل انطلاق : أمامها ، لا يعود الكاتب متحرراً إلا في حضور «فوست» يكون وجوده شبه أدبي فقط . ولا يعود الاسم هنا إلا مجرد بطاقة ملصقة على منتجات مختلفة . فحتى اليوم ، لم يصور أحد نابوليون في صورة خائن أو أبله : فهذا كانت الأمزجة الفنية ، ومن ثم

التفسيرات ، ثمة في الشخصية التاريخية ما يقاوم التصورات الأخيرة . وكذلك الدراسات المخصصة لقدر تلك الشخصية الأدبي . لها ترابط وحاجة لا يمكن تطلبها من قصص دون جوان .

٦ - الهالات الأدبية : ثمة مجموعة من الأعمال مبنية على

الدراسات المخصصة لغنى الأدباء ، انما لا مجال لها في هذا الفصل ، وهي عن الهالات التي تنشأ عن الادباء وحوطهم . فبعض السير يستحوذ على الهالة قبل موت الأدباء : فهـ التأمـلات ، حمل نجاحها لصاحبها أضواء غير عادية . وفي أيامنا . قام تيار وجودي حمل معه جان بول سارتر الى مرتبة البطولة . أما في حال الأدباء الراحلين أو الأجناب . فتسع الهالة حجماً . وهذا ما برهنه جاك فوازين عندما درس «جان جاك روسو في انكلترا بين ١٧٧٨ الى ١٨٣٠ . وكذلك اتياميل ، عكف على «هالة رمبو الأسطورية» الذي لعب في كل أوروبا دوراً مهماً يكاد يعادل شعره . فهل هو فعلاً ذلك «الصوفي في الحالة الأولى» و«الرؤيوي» و«الأرعن» كما قيل عن حياته ؟ على كل ، كان هكذا ، بالنسبة لكلوديل أو أندريه برتون ، حتى تستحق الهالة الرمبوية أن تدرس في ذاتها .

ميدان معروف : كان بول فان تينغيم - الغائص في الأعمال المخصصة للأنواع والمواضيع - يقر - منذ ١٩٣١ . أن هذه الأعمال جيدة الدراسة ، وأن الأنواع ، في ذاتها . استوفتها الدراسات . لكن من التسرع ، الاقرار بأن الجهد المبذول في أعمال المقارنة ، استوفى .

فرغم التنقيحات التي طرأت على تلك الأعمال ، تبقى تساؤلات تنتظر أجوبة .

١- من جهة الأنواع ، لم ينكتب بعد تاريخ التدرج جيدياً الكلاسيكية الفرنسية ، وعلى الأدب المقارن أن يتصدى للمسائل التي تطرحها عليه الدراما الكلوديلية . فعندما يؤكد كلوديل أن شكسبير هو معلمه الأول ، بحث على دراسة مقارنة للهيكليّة الدرامية لدى كل من الشعراء . ورغم أن بيرتون درس ذلك في بحثه عن شكسبير وكلوديل ، وحدها الدراسة المقارنة تقيم درامية كلوديل في تشبعها من أسلافه الأجانب وخاصة من شكسبير .

ويجب أن تخضع كذلك للتجارب المقارنة الرواية المعاصرة التي . مجردة من كل اصطلاح ، تبدو خاضعة لتقنيات ملزمة وواجبة : التزامنية ، الحوار الداخلي . الخ ... والتأثير الأميركي على نوع الرواية في فرنسا . يلزمه كذلك درس وإشباع ، قد تنجم عنها مسائل كثيرة ، أبرزها : لماذا . في عصر من العصور (بدءاً من ١٩٣٠ تقريباً) تأثر الروائيون الفرنسيون بولم فولكنر أو دوس باسوس أو شتاينبك ؟ إن جواباً دقيقاً وتاريخياً موثقاً عن هذا السؤال ، يلقي ضوءاً جديداً على التطور التقني والروحي للرواية الفرنسية .

٢- المواضيع ، وعلى الأدق النماذج الأسطورية استكملت دراستها . من هنا . تؤمل دراسة معمقة عن شخصية « أنتيغون » من

سوفوكل الى جان أنوي مروراً بالفيري وغيره . لكن موضوعاً مهماً كهذا ، لم يلهم حتى اليوم إلا بعض المقالات والموضوعات البسيطة . وثمة دراسة معمقة وضعها تروسون عن «موضوع بروميتيه في الأدب الأوروبي» (١٩٦٤) : من اشيل الى أندريه جيد . مروراً ببوكاس وكالديرون وهردر وغوته وشيلي وكينيه ويسور ، وبينهم سار المؤلف في رحلة ممتعة دون سابق تأثير أو تأثير كأن ننطلق معه من أن «بروميتيه أول الرومنطيين» .

فالرومنطيقية ، في الواقع ، استعادت بسارق النار على صورتها . والأسطورة ، وهي باتت أكثر فهماً وشهرة ، تستعيد مجدها الذي غرق في الكلام المنمق .

تلك الشواهد الآتفة ، كافية لتثبت ان ميدان المواضيع ، وان هو جد معروف ومكتشف ، يبقى على استيعاب اكثر للباحثين .

والأدب المقارن ، دون الانزلاق إلى الفولكلور أو الى جمع المعلومات . يمكنه أن يجد في تلك المواضيع ، فرصة أكيدة للمشاركة في تاريخ الافكار والعواطف ، الذي كان الأدباء هم دائماً أبطاله اللافتين (١) .

(١) وتلفت أيضاً إلى دراسات أكسلراد عن «موضوع سوفونيسب في أبرز التراجيديات لدى الأدب الغربي» (١٩٥٦) . ودراسة ديرش حول «٤ حالات شعرية : أوديب ، نرسيس ، بنيشيه ، ولوريلي» (١٩٦٢) .

الفصل الخامس

بين القاطنات والنجاة

في فرنسا : ان أهمية الأدباء خارج أرضهم الأم ، أثارت في فرنسا - وفي صفوف المناصرين الأجانب للمدرسة المقارنة الفرنسية - أعمالاً أكثر من أي فرع آخر في الأدب المقارن . طبعاً ، للتنوع اللامتناهي في التبادل الأدبي ، تبرير واضح لهذا الولع ، لكن في بعض تلك الأعمال ، ظاهرات ، لافتة ، منها . أن نجد . في بعض الجداول البيليوغرافية ، أن شكسبير من صربيا ، أوراسين من بلغاريا أو بول كوك من روسيا . وهي نتيجة الإهمال للأسراع ، لكنها أيضاً فدية نجاح لا يترك للجهد في هذا المجال ، إلا مواضيع موجزة مقتضية .

١ - أدباء فرنسيون في الخارج

حتى لو عدّنا جميع الكتب التي درست أثر الأدباء الفرنسيين في الخارج ، لا يمكننا حصرها . لكن بينها . كتاباً لافتة ، أبرزها : « التأمّلات الأولى في هولندا » . وفي القرن السادس عشر ، كتاب

«رابليه في الأدب الانكليزي» لـ هـ. براون (١٩٣٣) . و«رونسار في هولندا» لفالكوف (١٩٢٥) و«رونسار في ايطاليا» لموغان (١٩٢٦) . وهذا م. بويليه ، تتبع تنقلات مونتاني الأدبية في ألمانيا (١٩٢١) وايطاليا وأسبانيا (١٩٢٢) . وأبرز له شارل ديديان أثره في الأدباء الانكلوساكسونيين . (١٩٤٧) .

أما الأدباء الفرنسيون الذين كان لهم دارسون في أوروبا كثيرون متعمقون ، فابرزهم : موليير ، بوالو ، وفينيلون . فوليير ، كان له تأثير عظيم في ألمانيا وانكلترا وايطاليا . مما أوجد دراسات من ايرهارد (١٨٨٨) وجيليه (١٩١٣) وتولدو (١٩١٠) . وبوالو ، منظر الكلاسيكية الفرنسية ، كان درسه عميقاً في ألمانيا وايطاليا وهولندا وانكلترا . ومن اللافت أن تأثير راسين خارج فرنسا لم يكن مهماً ولا معمقاً . على عكس موليير الذي رآه الدارسون أكثر فرنسية ، ولكن أوسع انسانية وأشمل . ولم يثر راسين دراسات مقارنة . أما فينيلون فمختلف الوضع : كتابه «تيلياك» تمت ترجمته إلى جميع لغات أوروبا . وتعاليمه الدينية تخطت حدود العالم الكاثوليكي . وأفكاره السياسية تبناها ونشرها عدد من الفلاسفة . أمر مؤسف يبقى ، أن الدراسات عن «فينيلون في ايطاليا» لموغان (١٩١٠) ، وهولندا (١٩١٠) لمارتان (١٩٢٧) ، لم تستكملها دراسة عن فينيلون في انكلترا .

وتكاثرت الدراسات حول أدباء القرن الثامن عشر .

الأوروبيين من فرنسا. فدرست أهمية مونتسكيو في انكلترا، وفي ألمانيا. والمشروع الذي كان بدأه ميشال كابوس، «فولتير وانكلترا»، استكماله أندريه روسو جامعاً بقية الدراسات ومكتملاً إياها، هو الذي كان أول من ضوئاً على الظاهرة العلمية للمقارنة الفرنسية. عام ١٩٢٨، أبرز ميلان ماركوفيتش ما تأثر به تولستوي من فولتير. ثم قام هنري روديه وأبرز حجم النجاح والتأثير اللذين «بلجان جاك روسو في انكلترا» (١٩٥٠)، بين ١٧٥٠ (عام ألقى أولى خطاباته)، و١٧٧٨، (عام وفاته). وكان من جاك فوازين، ان يطيل الدراسة حتى ١٨٣٠، راسماً تأثير روسو في الرومنطيقية الانكليزية. ثم وضع رولان مورتيه كتاباً مهماً عن «ديدرو في ألمانيا» (١٩٥٤)، جمع فيه المقالات القليلة التي خصصت لدرس آثار ديدرو وتأثيرها في أوروبا.

والرومنطيقية الفرنسية، وإن متأخرة تألقاً عن الانكليزية والألمانية، لم تحظ بتألق كبير خارج حدود فرنسا. من هنا أن المقارنين، في دراستهم لعشرات السنين الأولى من القرن التاسع عشر، ضوؤوا على المنابع و«التوجيهات» الاجنبية التي تلقاها الأدباء الفرنسيون، أكثر مما ضوؤوا على تأثيرهم في انكلترا وألمانيا. فلا لامارتين ولا فينبي ولا هوغو ولا موسيه كانوا يقدمون مادة دسمة للدرس المقارن، كما، مثلاً، «غوته في فرنسا». وكتاب مارسيل مورو «الرومنطيقية الفرنسية في انكلترا» (١٩٣٣)، يوضح التأثير

الذي كان لهم خارج فرنسا . وعن هوغو ، كان هوكر وضع كتاباً عام ١٩٣٨ . وإيطاليا ، في هذه الفترة ، كانت متجهة نحو فرنسا ، فظهرت فيها تأثيرات مدام دو ستال وشاتوبريان ولامرتين . ولم تظهر كتب كثيرة حول أهمية الرومنطيين الفرنسيين في ألمانيا وأسبانيا . وتعود أهمية العمل المقارن تتسع ، مع بودلير وفلوبير والشعراء والروائيين اللاحقين ، فتتسع دراسات المقارنين . وأبرزها ، دراسة أنيد ستاركي عام ١٩٦٠ : « من غوتيه الى اليوت » ، تأثير فرنسا على الأدب الانكليزي (١٨٥١ - ١٩٣٩) ، ودراسة ماري نيل « فلوبير في انكلترا » ، وجانيبي « أهمية ابولينير في ايطاليا » ، ١٩٦٥ . وظهرت دراسات أخرى تبرز أهمية الاشعاع الذي تركته في الخارج ، تيارات الواقعية والرمزية والطبيعية وسواها (راجع الفصل السابع من هذا الكتاب) .

تلك اللوحة السريعة ، توضح أهمية الابحاث التي ظهرت حول موضوع الأدباء الفرنسيين في الخارج . وتأخذ مثلاً نموذجياً عن ذلك ، كما ورد في كتاب شارل ديديان « مونتاني لدى أصدقائه الانكلوساكسونيين » ، ونخصص : مونتاني في انكلترا والولايات المتحدة .

فـ« المحاولات » ، اشتهرت سريعاً خارج فرنسا ، بنصّها الفرنسي أولاً ، ثم بالترجمة التي وضعها جون فلوريو ، الايطالي الانكليزي .

لكن هذه البدايات لمونتاني على المسرح الأدبي الانكليزي ، درسها بيار فيلي . وأبحاث شارل ديديان تناولت العمل منذ ١٧٦٠ حتى ١٩٠٠ ، أي حوالي قرن ونصف من الفكر الانكليزي بدا واضح التأثير به «محاولات» مونتاني . وخلال هذه الحقبة الطويلة ، نميز أربع مراحل :

(أ) ما قبل الرومنطيقية (١٧٦٠ - ١٧٩٨) ، وفيها تقدير كبير للتبجح وروح التساهل لدى مونتاني . واذا استثنينا دراسات هوراس والبول النقدية ، نجد غولد سميث وستيرن يتدوقان حميميات «المحاولات» ، وتريسترام شاندي يتأثر بها في أسلوبه . لكن الثورة الفرنسية اطلقت في انكلترا موجة محافظة رادها بورك . وكان من وليم سيوارد أن يلبس مونتاني زي العصر ، فاذا به يخرج رومنطيقياً ومسيحياً ، محافظاً على التقاليد ومحباً للاطلاع ، وذا دور في الحركة المناهضة للثورة .

(ب) الرومنطيقية (١٧٩٨ - ١٨٣٢) جعلت أهمية للاحساس بالوحدة لدى مونتاني ، لكن بايرون أحب أن يحد في مونتاني شكه الخاص . حتى لم يعد «يريد أن يسمع إلا صوته وصوت فولتير» . طبعاً ، لا تلاحظ طبعة من الطبعات الجديدة لـ «المحاولات» ، أثر تلك السنوات الاربع والثلاثين (أي فترة الرومنطيقية أعلاه) ، لكن المتبع يستطيع ملاحظته في شعر بايرون وتوماس مور ولدى علماء

النفس (كما لدى دوغالد ستوارت) وعلماء الاجتماع والأخلاق (كما
بنهام). ودراسة تلك الفترة تنهي مع الانكليز الذين تأثروا بمونتاني ،
أمثال : تشارلز لامب ، وللم هازليت . ولتر سافاج لاندور .

ج) المرحلة اللاحقة : (١٨٣٢ - ١٨٧٥) هي المرحلة
الفيكتورية ، التي انطبعت في جميع الميادين بـ «حب الاعتدال» ،
إذ بات الأدباء أقل أخذاً من مونتاني (ستيرن أو بايرون) ، وأكثر
فهماً له في العمق ، مما وُلد مادة غزيرة للمؤرخين (هنري هالام ،
وليم ليكي) ، والأخلاقين (امرسون) والروائيين (تاكراي) .

د) التجديد الرومنطقي في أواخر العصر (١٨٧٥ - ١٩٠٠) ،
وهو عاد الى «المحاولات» في فصول أقل علمية انما أكثر شغفاً . فهذا
ستفنسون في حبه للوحدة وحب الذات ، وهذا باتر ، في حبه للحياة
والمملذات ، يخرجان في وضوح عن خط التأثير بمونتاني .

أخيراً ، من البديهي أن هذه اللوحة عن ١٤٠ عاماً من الأدب
الانكليزي ، تتركز في كل مرحلة . لا على مشابهاة ومقارنات ، بل
على دراسة دقيقة لكل أديب ، وحدها تستطيع أن تميز التأثير الأدبي
من التأثيرات الأخرى . وهنا نكتشف أن مونتاني - الذي يضىء
شارل ديديان على قرابته الفكرية من العبقرية الانكليزية - لم يغيب
قط عن الأدب الانكليزي . وسواء أكان تأثيره عظيماً أم انه كان
موضة العصر ، فهو يبقى حاضراً في تفاصيل الأدباء الأكثر شيوعاً في

عصرهم ، من شعراء وروائيين وأخلاقين . والذي يتبع تحولاته ، يجد تنوع تأثيره ، ويلمح مدى فعاليته في سخرية سترن ، وشك بايرون وتوازن باتر .

٢ - أدباء أجنبية في فرنسا

ملاحظات تمهيدية : يجب ألا يظن قارئ هذه الصفحات التالية ، أن الأدب المقارن اهتم بالتأثيرات الخارجية على فرنسا ، أكثر من التأثيرات الفرنسية في الخارج . فليس هذا دأبنا . وإن كنا في الأساس نتوجه إلى قراء فرنسيين . لكن الدارسين الفرنسيين للأدب المقارن ، وجدوا أسهل أن يصفوا لدى بلزك أو اندريه جيد على تأثيرات من الغير ، أكثر من أن يصفوا على التأثير الفرنسي في آثار ميريديث أو تولستوي .

وأكثر : كانت التأثيرات الانكليزية والألمانية أشمل درساً من الايطالية والاسبانية والروسية . والسبب ، أنه ، بدءاً من القرن الثامن عشر كانت الأوليان هما الأهم ، وبين الفرنسيين ، قليلون كانوا قرأوا كالدرون ، بينما الكثيرون كانوا قرأوا « هاملت » و« ورثر » . وثمة سبب آخر : الثلاث الأنحريات لم تكن واسعة الانتشار . كلغات - في فرنسا . وقليلون من العلماء كانوا يستطيعون الكتابة عن تأثير لوبه دو فيغا مثلاً في فرنسا . وكذلك ايطاليا بقيت بعيدة نظراً لتقصير

المقارنين الايطاليين. ولا يمكن ، عن اسبانيا وروسيا . إلا ذكر
عناوين قليلة جداً .

فماذا عن كل من هذه التأثيرات ؟

(١) التأثيرات الانكليزية : اذا كانت أهمية شكسبير في
الخارج ، موضوع بحث معمق ، ففي فرنسا لم تكن كذلك ، في هذا
العمق . وما صدر ، كان لبالدنشيرغر الذي وضع عام ١٩١٠ دراسة
مهمة تصل بقارئ فولتير حتى مستهل القرن العشرين ، وجاءت تكملة
لدراسة جوسران (١٨٩٨) عن « شكسبير في فرنسا خلال ما قبل
الثورة » ، التي وسّعها في ما بعد (عام ١٩٤٧) للمرحلة قبل
الرومنطيقية ، الى دراسة « اكتشاف شكسبير » .

وآخر ما صدر في هذا المجال ، كتاب « هملت في فرنسا من فولتير
الى لافورغ » ، لبيلي .

وتبدو الكلاسيكية الانكليزية ، ناقلة اكثر منها دائنة . لذلك لا
نجد عن أدبائها في فرنسا إلا مقالات عابرة . ومن اللافت ألا نجد الا
ذكراً عابراً لأهمية ريتشاردسون الذي أبكى الكثيرين من الفرنسيين
في القرن الثامن عشر ، هو الذي ترجمه الأب بريفو ، وقرأه روسو
وامتدحه ديدرو كثيراً .

وكان للرومنطيقين والسابقين للرومنطيقين ان يظهروا حماساً
كبيراً : بول فان تيسيم عن أوسيان (١٩١٧) . ولويس ميغرون عن

والتر سكوت (راجع الفصل الرابع). واستيف عن بايرون (١٩٠٧-١٩٢٩)، فكتبوا عنهم مؤلفات تندرج في نطاق التاريخ الأدبي الذي تبعث منه دائماً نظريات جديدة، يلزمها تنقيح وتبويب. وبين دراسات أخرى، درس مقارنون بريطانيون تأثير توماس مور في فرنسا. وكسارليل في «الفكر اللاتيني» (تايلور-١٩٣٧).

بعد ١٨٦٠، بدأت انكلترا تتلقى من فرنسا آفاقاً أدبية، كما كان تأثير مهم في فرنسا من أوسكار وايلد أو من جويس (وهو عمل قام به شو وباتمور)، وسواهما من الذين وراء اندريه جيد وفاليري لاريو وبول كلوديل.

٢- التأثيرات الألمانية: أكثر المقارنين الفرنسيين، من الضالعين في اللغة والثقافة الألمانيتين. ولهذا المعرفة العميقة، أثر في ظهور آثار مهمة، أبرزها تلك المخصصة لتأثير كبار الأدباء الألمان - وأهم تلك الآثار، مؤلفات:

- بيتر: «هاين في فرنسا» (١٨٩٥)

- بالدنشيرغر: «غوته في فرنسا» (١٩٠٤ - ١٩٢٠)

- ترونشون. «ثروة هردر الفكرية في فرنسا» (١٩٢٠)

- ايغلي: «شيلر والرومنطيقية الفرنسية» (١٩٢٧)

- ييانكي: «نيتشه في فرنسا» (١٩٢٩).

هذه الخمس المؤلفات ، تكون جبهة منيعة في موضوعها .
صحيح أن ليس للمؤلفين والأدباء المكتوب عنهم ، الأهمية نفسها ،
لكن النتائج ، في النهاية ، أكيدة التأثير .

وثمة مقالات كثيرة - إلى الكتب - ، عن أدباء أقل أهمية أو
متأخري الاكتشاف (كما حال توفاليس) . ومن هذه ، دراسة عن
هوفمان في فرنسا ، موجودة في كتاب كاستيكس الأطروحة عن
«القصة الخيالية» (١٩٥١) .

٣ - التأثيرات الإيطالية : من اللافت ، أن بول هازار ، وهو
المشبح بالأدب الإيطالي ، لم يخصص ، في كتبه ، واحدة من
دراسات المهمة للتأثير الإيطالي وانتشار هذا الأخير في فرنسا . ولم
يظهر في هذا المجال ، إلا دراسة صغيرة عن «فيكو في فرنسا»
(١٩٣١ - ١٩٣٢) .

لماذا هذا الاستنكاف ؟

ربما لأنه ، هو المهتم بالقرن الثامن عشر . لم يعد يجد ، بعد
١٦٨٠ ، مادة مهمة لدراسات كهذه . ومرت فترة ، كان فيها كل
فرنسي مثقف ، يعرف الإيطالية ، وكان الأدب الإيطالي فيها يحتل
مكانة احتلها الأدب الانكليزي في ما بعد .

وأبرز ما يمكن ذكره حول هذه التأثيرات ، كتاب كونسون حول
«دائته في فرنسا» (١٩٠٦) ، وكتاب فياني حول «البتراكية»

(١٩٠٩) ، وبحث سيورانسكو حول «الاروسطي في فرنسا ، منذ المتابع حتى نهاية القرن السابع عشر» (١٩٤٢) وهو الذي عاد فأكملة سمبسون في «لوتاس والأدب والفن الباروكيان في فرنسا» (١٩٦٢) . مع الاشارة الى أن فياني يتحدث عن البرازكية اكثر مما يتحدث عن برارك . وخارج هذه الحالات الخاصة ، لم تتر أهمية بوكاشيو الا مقالات صحافية . واذا كان على بعض العمق ، بحث ليوباردي وكاردوتشي في فرنسا . فما هو هكذا ، البحث في غولدفوني وسيلفيو بيليكو اللذين لفتا في فرنسا . ولم تظهر ، في هذا المجال ، إلا دراسة بيشوب عن «بيرانديلو والمسرح الفرنسي» (١٩٦٠) ، التي تتبع التأثير البيرانديلي على المسرحيين الفرنسيين ، منذ بعد الحرب حتى ايونسكو وجان جينيه .

٤) التأثيرات الاسبانية : كان لها تأثير كبير في ميدان الانواع والمواضيع . وتم درسها في كتب كما بلخاندارم دوييفوت ومارتيناتش ، ولم يدرس في عمق ، أثر لوبه دو فيغا وكالديرون .

سرفانتس أخذ قسماً كبيراً . لكنه وهوبات أديب كتاب شهير ، طبيعي أن تنصب عليه جميع الدراسات من خلال هذا الكتاب ، وأبرزها . التي وضعها باردون ، «دون كيشوت في فرنسا» (١٩٣١) . وتركز بحثه فيها على الكتاب ، فماذا عنها؟

دون كيشوت في فرنسا : أصدر سرفانتس روايته على قسمين

(١٦٠٥ - ١٦١٦) . ومنذ ١٦١٤ ، تمت ترجمة القسم الأول إلى الفرنسية بقلم سيزار أودان . وفرنسوا دوروسيه ترجم القسم الثاني عام ١٦١٨ . اي ان الكتاب اشتهر في فرنسا بعيد صدوره في اسبانيا . وبرزت أهميته بأقلام فواتور وسانت آمان وسكارون الذي تأثر به كثيراً ، وكذلك سوريل الذي وضع «الراعي الشاذ» مقلداً «دون كيشوت» . وفي المسرح - صار الفارس ونخادمه ، «من الشخصيات الخرافية اكثر منها درامية» ، وظهر هذا التأثير لدى سيرانو دو برجراك أوسان سورلان . والتأثير ، بقي محصوراً بما وصل عن دون كيشوت من اقتباسات فرنسية في الأعوام ١٦٢٨ ، ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ ، ١٦٤١ ، ١٦٤٥ ، وهي تواريخ متقاربة تدل على حضور دون كيشوت في الربع الثاني من القرن السابع عشر .

على ان الفترة الكلاسيكية ، (١٦٦٠ - ١٧٠٠) لا تعقد أهمية كبيرة على رائعة سرفانتس . وصارت قراءته عادية إنما تقليده أقل مما على عهد لويس الثالث عشر . وهو لم يعرف بالضبط الا معجبين اثنين : لافونتين وسانت افرمون . لكن هذه الفترة شهدت ظاهرة لافتة : ترجمة «دون كيشوت» واكماله ، بقلم فيلودو سان مارتان ، وشال . والأول لم يهتم كثيراً للأمانة في النقل ، بل «أقلم النص حسب ذوق الفرنسيين وتفهمهم» . لكن هذه «الأمانة» ، كما في حال «اختراعات» فرنسية لدون كيشوت ، لها تأثير يدوم ما دام بطلها ،

الذي صار نموذج الفارس الأنيق المحاملة .

مع القرن الثامن عشر ، ولد الفضول من جديد الى اسبانيا . واذا سرفانتس موضوع إثارة من المدافعين عن القدامى ، الذين سخروا منه . وكان من «لوساج» . هو الآخر ، أن يعمل عليه . ثم أتى ماريغو الذي قلده (١٧١٢) ، وقلده كتاب مسرحيون آخرون أكثرهم أظهر دون كيشوت وشانشو شخصيات كوميدية بحتة .

بين ١٧٣٠ و ١٧٨٠ ، وضع موريس باردون دراسة استقصائية أظهر فيها ذبول أثر سرفانتس ، في الرواية وفي المسرحية الفرنسيين . والترجمة التي وضعها فلوريان عام ١٧٩٩ ، ساعدت على إبراز أهمية دون كيشوت . ولكن ، إذا الثورة وما بعدها ، اكّدتها ، فالاعتبار العام للكتاب ، يبقى ساخراً وكوميدياً . وما إلا عام ١٨١٥ ، (تاريخ توقف باردون عن أبحاثه) ، حتى ظهر مفهوم أعمق للكتاب والكاتب .

هكذا ، يكون هذا الكتاب ، طوال ٢٠٠ سنة ، موضوع قراءة وترجمة وتقليد واستكمال ، وبقى متألّقا حتى بعد هذه المدة . وهكذا تأقلم دون كيشوت في فرنسا ، إلى شخصية من رابليه ، فشخصية رومنطيقية ، وألقى أضواء على أحاسيس الفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي الوقت نفسه ، هذا الحضور لسرفانتس ، يلقي أضواء على التأثير الاسباني في التطور الأدبي الفرنسي .

والمؤسف ، حقاً ، ألا تقوم ، بعد موريس باردون ، دراسات مكتملة لأعماله .

٥ - التأثيرات الروسية : وهي قليلة لأنها حديثة العهد وقليلة المعالجة . أبرز هذه ، العدد الخاص من «مجلة الأدب المقارن» عن بوشكين ، وكتاب منسن حول تأثير دوستوفسكي (١٩٣٤) ، «وتولستوي في فرنسا» (١٨٨٦ - ١٩١٠) الذي وضعه لنديستروم (١٩٥٢) .

٣ - التأثيرات بين الآداب الأجنبية

من الصعب على الفرنسي أن يدرس تأثير أديب ألماني في انكلترا ، أو أديب انكليزي في روسيا ، فهذه كتب يضعها ، أسهل ، انكليزي أوروبي ، غير أن المحاولة أغرت جان ماري كاربه في كتابه «غوته في انكلترا» (١٩٢٠) . وكان ليرونديل وضع «شكسبير في روسيا» (١٩١٢) ، وبرتران وضع «سر فانتس والرومنطيقية الألمانية» (١٩١٤) . وكذلك فارينيلي ، الضالع في العلاقات الأدبية الدولية ، درس - وهو العالم الايطالي ، أهمية لويه دو فيغا في ألمانيا (١٨٩٤ - ١٩٣٦) . لكن ، ثمة استثناءات : فعالمياً ، يكون للمحرص أن يشير المقارن على اختيار مسائل من لغته وثقافته ، كما برايس في «الأدب الانكليزي في ألمانيا» (١٩٥٣) الذي عاد فأكملة كتاب «دخول الأدب الاميركي الى ألمانيا» (١٩٦٦) ، أو

كما ييلغريني في « الشعر الانكليزي في ايطاليا » (١٩٥٨) ، أوروكرس
الذي كتب عن دخول تأثير « نيتشه في العالم الاسباني » (١٩٦٤) .

٤ - نموذجان لافتان : شكسبير وغوته

كثرت الدراسات التي حول التأثيرات الأدبية ، وتنوعت
وتوزعت على غير تساو حسب العصور والبلدان . ولا يمكننا تكوين
فكرة واضحة عن امكانيات الأدب المقارن في هذا المجال ، إلا
باتخاذ نموذجين تم بحثهما في عمق شديد : شكسبير وغوته ، اللذين
كانت أهميتها كبيرة في أوروبا . والدراسات الكثيرة التي خصصت
لها . تظهر كم الفرق كبير بين التأثير والانتشار ، وبين المجد والنجاح .
وأهمية أخذنا إياهما ، تتجلى في كونها مثالين لاشعاع العبقرية
الانكليزية والعبقرية الألمانية .

فماذا عنها ؟

١ - شكسبير : كثيرة عنه الدراسات حول تأثيره في كل من
الآداب الأوروبية : كالفرنسي ، والألماني والإيطالي والاسباني
والروسي . ونكتفي هنا بالأولين فقط .

أفضل ما كُتِب في هذا الموضوع ، كتابا جوسيران وفان تيسم
لمرحلة قبل الثورة ، ودراسة بالدنشيرغر للسنوات ١٧٨٩ الى ١٩١٠ .
ومن هذه الثلاثة الكتب يمكننا ان نكوّن فكرة عامة عن تاريخ

شكسبير في فرنسا حتى اليوم . لكن الكتابين الأولين بقيا على بعض النقص حتى جاء الثالث فأكمله إلا في ما يختص بتحويلات «أوتيللو» الهولندية ، او بأهمية «هاملت» .

لم يكن شكسبير معروفاً في فرنسا خلال القرن السابع عشر ، حتى جاء فولتير فأدخله الى «عصر النور» ، بعبارة «العبقري الغريب» . وانقسم الناس حول العبارة ، فركز البعض على كلمة «عبقري» والبعض الآخر على كلمة «غريب» . وحلل بلدنشيرغر ذلك ، بأن فولتير اعتبر شكسبير «غريباً» لكننا أراد ان يعني به التراجيديا الفرنسية . من هنا المحافظة فيما على الخمسة الفصول وعلى الوزن الشعري وعلى وحدات المسرح الثلاث ، ومعها إدخال لعبة الاخراج ، والعقدة التاريخية ، وضربات الخنجر ، والأشباح ، وجميعها استمدتها فولتير من النموذج الانكليزي الكبير . وكان أن قامت موجة من انصار «العبقري» في شكسبير تدحض المفاهيم التي أبرزها فولتير . وعلى رأس هؤلاء : ديدرو الذي رفض أن يرى مع فولتير في شكسبير ، «الغرابة» . من هنا ان «نقد كورناي» لم يكن له إلا هدف واحد : إظهار التوازن الكلاسيكي في القرن السابع عشر الفرنسي ، مقابل «الغرابة» الانكليزية . وبين ١٧٦٠ و ١٧٧٠ سرت موجة جعلت تحت طابع «الغرابة» ، كل حوار طبيعي ومزج في الأنواع واللون التاريخي مع الاحتفاظ بالذوق الفرنسي في قواعد

المسرح والمحافظة على الوزن الشعري . وكان يقوم الجدل لدى
المفاضلة بين «العقل» و«الطبيعة» ، أي بين كورناي وشكسبير .
هذا عن شكسبير في الأدب الفرنسي ، فماذا عنه في الأدب
الألماني ؟

انتشر شكسبير في ألمانيا بعد انتشاره في فرنسا بقليل . وكان
«بوركه» ترجم يوليوس قيصر عام ١٧٤١ . وبعد مناهضات
عديدة ، أصبح شكسبير نموذج كل فن درامي في ألمانيا .

عام ١٧٥٩ ، كتب لسينغ «رسائل حول الادب الجديد» ، جاء
في السابعة عشرة منها ، أنه ينفي التأثير الفرنسي ، ويحل شكسبير
مكان كورناي . ويضع مقابل الجمالية الشكلية عند أرسطو ، فناً
يهدف الى الإعجاب . من هنا أن وايلند ، وهو فولتير الألماني ، عندما
ترجم ، سيثاً ، ٢٢ مسرحية لشكسبير (من ١٧٦٢ الى ١٧٦٦) ،
كان لا يزال ضائعاً بالكثير من التضخم والانحراف في الاستيعاب .
ولكن ، يعود اليه الفضل في دخول المسرحيات الشكسبيرية الى تراث
الألماني المثقف .

في فرنسا ، ومع ترجمة لو تورنور ، (١٧٧٦) بدا صاحب
مكبث «شاعر الظلمات» ، فأدخل الى الجوف الفرنسي جو الأطلال
والمقابر . لكننا في الوقت نفسه ، برز شكسبير مسرحياً يدخل الى عمق
النفس البشرية . من هنا أن شاتوبريان كتب : «لا أعرف احداً نظر

في هذا العمق الى الطبيعة الانسانية. (مركور دو
فرنس - ١٨٠١).

وخلال الخمس والعشرين سنة التي تفصل ترجمة لو تودنور عن
هذا القول لشاتوبريان ، شهدت المانيا ولادة الكلاسيكية الغوتية ،
والرومنطيقية . وفي هذا التطور الادبي السريع ، كان لشكسبير دور
كبير . فهو بالنسبة لمن قبل الرومنطيقية ، مسرحي الحركة . والسبعينات
تدلّ على بداية اشعاعه في كل البلاد ، اذ انتشرت ترجمات
مسرحياته ، وتكاثرت عروضها التمثيلية ، ومن هنا ازدادت التعليقات
النقدية عليها . اما غوته ، الجمد في فيار منذ ١٧٧٥ ، فحاول ان
يتأق في اسلوب شكسبير ، وفقاً للأسس الجديدة التي تحملها وقتئذ
الكلاسيكية الحديثة العهد . وعندما صديقه شيلر ترجم « مكبث »
عام ١٨٠٠ ، أشار عليه ان تقوم بدور الساحرات ، ثلاث صبايا
يتمهن في الكلام ، تمثيلاً ، وغايته في ذلك اظهار شكسبير لا كما هو
شكسبير بل كما مفهوم غوته للفن المسرحي . وتمّ له ما أراد ، فصرح
بعدها أمام « إخرمان » عام ١٨٢٥ ، قائلاً . « ليس شكسبير شاعر
مسرح ، وما نحسره عندنا كشاعر مسرح ربحه في كونه شاعراً كبيراً
بشكل عام » .

ومع الرومنطيقية الألمانية ، نشأت موجة ألمانية شكسبيرية ،
بعدها صار التشديد قوياً على الشكل في المسرحية . من هنا أن

أوغست ولهم شليغل ، في بحثه عام ١٨٠٨ ، أثار ذلك مركزاً على أن شكسبير شربته الثقافة الألمانية فذاب فيها حتى لم يعد مثلاً للمسرحيين الألمان . وشيثاً فشيثاً صاروا يفضلون عليه كالديرون . على ان شكسبير ، هذا «الحمل الثقيل» كما كان يقول احد العلماء الانكليز ، بات موضوع دراسة طويلة في ألمانيا ، واعمال لا تنتهي . لكن شكسبير ، أديباً ، كان تأثيره في ألمانيا انتهى . وعبارة غوته الى إخرمان كانت كأنها عبارة رثائه .

أما الفرنسيون ، وهم آخر الرومنطقيين في اوروبا ، فراحوا يلقون على الآثار الشكسبيرية جميع الحسنات التي جردوها من راسين . وقامت أربعة تيارات مختلفة تنحو اربع منح متشعبة ، وتظهر شكسبير في أربع صور : فهو برهن في « الغلوب » ان الدراما التاريخية النثرية أمر ممكن ، وأظهر مع ستندال الحقيقة واللذة قد تتزاوجان ، وبرهن مع هوغو ان الدراما تحمل تنوعاً في الاوزان الشعرية ، وأخيراً مع الكسندر دوماس ورفاقه بين شكسبير امكانية استعمال الفتريات التاريخية والهزلية التي يمكن ان تتخطى وحدات المسرح وجميع الاعتبارات والاصطلاحات .

ولكن لا يفين عن البال ان الصراع هنا صراع فني ، وان مسرح شكسبير لم يتأقلم بعد فرنسيا . فهو قليل التمثيل ، وإن كان في شخصه يثير اهتماماً كبيراً . فبين ١٨٤٥ و ١٨٨٥ ، فيما كان مقصياً عن المسرح

الفرنسي ، ظهرت دراسات كثيرة تبحث في مسرحياته وشخصيته ، أبرزها : دراسة فكتور هوغو عنه عام ١٨٦٤ .

من هنا ان بلدنشيرغر استطاع ان يني دراسته عنه عام ١٩١٠ بهذه العبارة : « من المبالغ فيه القول ان الشكل الفني الشكسيري أثر عميقاً في المسرح الفرنسي او أنه أثر حتى في جمهوره وقراءه » . وجاء القرن العشرون ودحض كل هذه الاقوال ، لكنها في عصرها لم يكن يمكن لها ان تكون عكس ذلك . هي التي ظهرت بين مقاومات عديدة واستغلالات يحيط بها لجهل الثقافي . فإننا اليوم نعرف ، اكثر من ذي قبل ، أهمية الثورة التي أحدثها شكسبير في الذوق الفرنسي .

٢ - غوته : عام ١٨٦٢ ، أي بعد موت غوته بثلاثين سنة كتب سانت بوف : « ان غوته يبقى بالنسبة الينا غريباً ، شبه مجهول ، ونوعاً من السراء . واذا ، في كتاب بلدنشيرغر « غوته في فرنسا » وكتاب جان ماري كاربه « غوته في انكلترا » ، تتبعنا دخول آثار غوته العجيبة في فرنسا وانكلترا ، نلاحظ انها ، لدى الانكليز كما لدى الفرنسيين ، بقيت مجهولة .

في البدء ، كان نجاح « وورثر » عام ١٧٧٤ . ومنذ ١٧٧٦ في فرنسا ، وعام ١٧٧٩ في انكلترا ، تكاثرت ترجمات تلك الرواية ، دون الرجوع الى غوته قبلها ، حتى بات غوته ما سوى « صاحب وورثر » .

لكن الرومنطيقين اهتموا بنواح كثيرة من ادب غوته ، أبرزها المواضيع التاريخية والاسطورية في شعره ، وخاصة الدراما الفلسفية في «فاوست» . وحوالي ١٨٢٨ ترجم جيرار دو نرفال «فاوست» ، فصار غوته «صاحب فاوست» . لكن الفرنسيين لم يقدروا البناء الدرامي ولا الفلسفي في رائعة غوته ، فيما وجد الانكليز بصماتها واضحة في «قايين» بايرون ، او «برومتيه حراً» لشيلي .

ولم تحتفظ فرنسا من «فاوست» الا بمقطع هو الذي تكون فيه مارغريت موحية لغونو ، كما لم تحتفظ الا بموضوع واحد : «الابليسية» ، وهو الموضوع الذي منه وضع برليوز رائعته «اللجنة» . ومهما كان الاحتفاظان جزئيين ، من اللافت ان ينبثق منها موسيقيان عظيمان فيما انبثق من الادب الانكليزي شاعران عظيمان .

لكن غوته كاد يصبح مع كارليل ، حكيماً اكثر منه فنانياً ، وجعل منه مرتكزاً لمبادئه الاخلاقية النابعة من ابطال غوته ، فأثر تأثيراً بليغاً في مواطنيه الانكليز .

اما في فرنسا ، فاكتشافه كان بعد الثورة ، نموذجاً لدى البرناسيين للمفكر والمبدع الجمالي . فالتناغم تام بين الكلاسيكية الغوتية والحنين البرناسي .

وان كان من خلاصة موحدة لأهمية غوته في انكلترا وفرنسا ، يمكننا القول ان القسم الأكبر من آثاره ، ظل مجهولاً او غير مفهوم

كلياً ، على الرغم من ان «ورثر» تشعب تأثيره ، فبات أخلاقياً لدى الانكليز ، وفتياً لدى الفرنسيين ، وطبع الكثيرين من الادباء كما كارليل وشيلي او كما تين وباريس .

يبقى ان هذين النموذجين ، شكسبير وغوته ، دليلان قاطعان على الدور الذي يلعبه الادب المقارن في تاريخ الافكار وتواريخ الآداب الوطنية . فالتعمق في دراسة تأثير شكسبير او غوته في فرنسا ، يؤدي الى التعمق في دراسة الأدب الفرنسي واستخراج طابعه المميز والتحولات الهولانية الطارئة عليه .

• - التأثيرات المتبادلة

بعد حديثنا عن التأثير الخارجي للأديب ، تأتي الى ما يحمله هذا الأديب الى الخارج والى ما يدين به الى الخارج . بمعنى آخر نجمع دراسة التأثير والبحث عن المصادر لدى الأديب . فكتاب كما «فولتير وايطاليا» (١٨٩٨) ، حاول فيه بوني إيجاد المواضيع والتأثيرات الايطالية في آثار فولتير ، ثم انتقل الى تأثير آثار فولتير على الادباء الايطاليين ومدى استقبالهم له .

في هذا الخط من الاعمال يمكننا ان نذكر مؤلفات :

- ديحوب : «مدام دو ستال وايطاليا» . (١٨٩٠) .

- سريان : «ليوباردي وفرنسا» (١٩١٣) .

— دلاتر: «ديكتر وفرنسا» (١٩٢٧)

— جوليات: «سموليت وفرنسا» (١٩٣٥)

— هنري بير: «شيلي وفرنسا» (١٩٣٥)

ونتوقف عند هذا الكتاب الاخير.

وفيه يبرز المؤلف، التأثير الذي يلقاه ذلك الطالب الملحد في
اوكسفورد من فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين: فولتير خاصة،
وفولتاي وكوندورسيه. وائر رحلة أولى له لفرنسا عام ١٨١٤،
اكتشف شيلي روسو بعدما كان يجمله. ولدى عودته عام ١٨١٦ كان
انطبع بروسو كثيراً، حتى صار ملهمه وبطل قصيدة «انتصار الحياة»
التي فاجأه الموت قبل ان ينهيا.

ولكن شيلي المتأثر جداً بفرنسا، تباطأت فرنسا في اعتباره واحداً
من كبار الشعراء الانكليز. ولم يرد اسمه مرة أولى لدى الفرنسيين إلا
عام ١٨٢١، وبقي شاعراً «ليس ذا تأثير كبير على العصر الرومنطيقي
الفرنسي». وفي اواسط القرن التاسع عشر، بدأ اهتمام به مع هوغو
ويودلير، حتى جاءت الرمزية الفرنسية تعطي شيلي ما يستحقه فعلاً،
من انه، كما يستتبع هنري بير، الرابط الخفي بين الغنائية الفرنسية
والغنائية الانكليزية، وللكامن الخفي في مواقف الشعراء والنقاد
الفرنسيين عما حمله شيلي الى فرنسا بعد ما حمل هو من فرنسا الشيء
الكثير.

مرة أخرى ، هنا يكمن دور الادب المقارن ، في التوصل الى اعتبار «ميكولوجيا الشعوب» . هنا دقتها ، ولكن في الوقت نفسه هنا دورها الأول .

خاتمة : نهاية دراسات التأثيرات : اشرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب الى أن الخطر في كل دراسة للتأثيرات ، هو في المزج بين «تداخل الأدبين» و«علاقات التأثر والتأثير» . وهذه الناحية هي الرئيسية في الادب المقارن . وان تم درس بوالو وشكسبير وغوته على انهم ذوروتأثير ، فثمة مواضيع مهمة لم يتم درسها بعد بالشكل الوافي (مثلاً : روسو في المانيا) . وهذه أمور ، على الدارسين الجدد ان يهتموا بها .

عن هذه الناحية يقول لويس كازاميان ان الناحيتين يجب انعامها : التأثر والتأثير . وهو كان يرى أن مؤلفات شكسبير مثلاً تكون كلاً متناهياً ، فيما الروح الفرنسية او الرأي الفرنسي او الادب الفرنسي جميعها تكون كلاً مشرذماً تحت تأثير شكسبير في فرنسا .

لكن علماء الادب المقارن لا يبحثون عن نسبة بين ادب وآخر ، بل عن سلسلة من النسب لا يضيرها ان تكون متفاوتة . فشكسبير في فرنسا هو أولاً «العبقرية» مقابل «الذوق» ، ثم هو نموذج للفن المسرحي . وكلما بعدُ الزمان ، صار لهذا النوع من الدراسة شأن أعمق . وهنا يصيب لويس كراميان في قوله ان دراسة غوته في

انكلترا هي «كتابة فصل من الادب الانكليزي». ولا يمكن اخذ الفصل بحجم الكل ، وهذا هو دأب الادب المقارن . فبالنسبة للمؤرخ الادبي ، ثمة حقائق اساسية كالفرد واللغة والأثر والامة ، وفي ما بعد تأتي التأثيرات الخارجية التي يغنم منها الادب الوطني . من هنا التمني ، أن تظهر مستقبلاً - دراسات في هذا المجال ، أي دراسة الاطار ومن ثمّ التأثير والتأثير . لكن التمني كذلك ، لتجنب الوقوع في الثثرة الكتابية ، ان تتبّع تلك الدراسات ، شروطاً ، ابرزها :

- الدقة في اقامة علاقات التأثير .

- اختيار ادباء نموذجيين ومن يثبات صالحة للتقبل .

- الاحتراس من التجريدات المألوفة كما : العبقريّة الانكليزية او المدرسة الكلاسيكية ...

- الدقة في تحديد التسلسل الزمني .

وجميع هذه الشروط تنصبّ في واحد : المحافظة في دراسات الأدب المقارن على طابعها الانساني ، والا غرقت في ميادين علمية بعيدة عن روح الأدب .

الفصل السادس

المفاجع

المنايع ، التأثيرات ، الأجواء . - يعنى التاريخ الأدبي . منذ نشأته ، باكتشاف «المنايع» الكامنة وراء كل أديب ، وكل نص ، وكل سطر . وهي غالباً ما تكون واضحة حتى يروح الدارسون يقيمون علاقات قريى حتى تنتفي أهمية الابداع الشخصي عند الأديب .

من هنا ، حين قال لامرتين : «يا أيها الزمان ، أوقف دورتك ...» ، واكتشف البعض أن توماس قالها قبله ، أضاعوا على لامرتين لحظة الابداع ، بإيهام بعيد . خداع ، وتفسير لا يفسر شيئاً . وهنا خطئ المؤرخين المغالين ونقاد التاريخ الأدبي ، في أن يخلطوا المفاهيم المختلفة . فالمنايع والتأثيرات ، ليست على صعيد واحد : وهي ، وإن اجتمعت . لا تفسر كل شيء . وهذا ما أصابه لانسون حين قال : «أعظم الآثار ، هي التي لا تمحوها نظرية تين» .

إضافة الى هذا . ثمة تجارب تغير في مجرى حياة : كرحلة أو سفر أو صداقة أو قراءة نص . فنوته لم يعد من ايطاليا ، ولا شاتويريان من

أميركا . كما كانا قبل أن يغادرا بلديهما . وليس انتقاصا من قيمتهما .
تحليل ما هما به مدينان لاكتشافاتها خلال الرحلة ، أو بعدها . وفي
الفصل الثالث من هذا الكتاب ، أشرنا إلى أهمية المقارنين في هذا
الميدان . ومن الرهافة تقيم ما يدين به أديب لصديق . تكتشفه ،
أحيانا ، مراسلته معه . ولكن ، أحيانا ، يكون لعلاقات الصداقة أن
تتصدى للبحث العلمي ، لأنها تروي حياتها الخاصة ، وأحاديثها .
وكل ما يندر في الشهادات المكتوبة التي هي أبرز ما يعتمد عليه
المؤرخ . فإذا . مثلاً ، حملت الى لامرتين ، صداقته لإكشتين ،
العالم بالهندية ؟ يمكننا تصور ذلك ، لا الجزم به . ومن المفيد .
طبعاً ، لدى قراءة آثار لامرتين قبل لقائه بالبارون السنسكريتي ،
التذكر أنه ، بفضل ، تعرف الى الخطوط العريضة للفكر الهندوسي .
والقراءات وحدها ، إن لم يكن لها أن تعطي كل تفسير ، فهي ترسم
إطاراً للعالم الفكري لدى المبدع . فادراك أن ألفونس دوديه لم يقرأ
ديكتر في حياته ، يزيد في تقدير أهمية دوديه ، وفي استبعاد كلمة
«تأثير» واستبدالها بكلمة «قراءة» أو «تشابه» .

وفي جميع هذه الحالات ، ينصب الموضوع في عملية
التأثيرات ، سواء تم إبعادها أو تقريبها . وهو ، إذن ، لا ينصب في
«المنابع» بالمعنى الضيق للكلمة .

ولكن ، قبل الكلام على المنابع ، يجب الكلام على «المنابع»

الذي كان تين يسميه « البيثة » ، وهو الجو الذي يظهر فيه الأثر . ولا أثر بلا أجواء .

هذا « الجوّ » ، هو مجموع العوامل الشخصية التي ذكرناها آنفاً ، ومجموع العناصر المشتركة لجماعة أو لعصر . وطبعاً ، كلما كانت هذه العناصر عامة ، (دين ، جنسية ، مهنة) ، يخف خطرهما في أن تفسّر ظهور أثر أدبي ونموه ، خاصة في ما يميّزه عن الآثار الأخرى الموضوعية في ظروف مماثلة . لكن تلك العناصر ، تتيح المجال لوضع بعض الأسس في العمل : فالكالفينية ، مثلاً ، لا تفسّر روسو ، لكنها تضعه في جوه وتتيح فهمه أكثر من خلال هذا الجو . وحين الكلام على أنماط أقل حصراً ، كما ، مثلاً ، موجة التألق التي انتشرت لدى رجوع السلالة الملكية في فرنسا الى الحكم . يمكننا من خلالها (الأنماط) تتبّع نشأة بلزلك ، مثلاً ، وتكوينه الأدبي والاجتماعي ، وفهم مدى التأثير الانكليزي في رواياته .

أما « المنايع » ، في ذاتها ، (وفي هذا الكتاب تهمننا المنايع الأجنبية التي أثرت في الأدب الفرنسي وفرنسا) ، في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، لمسناكم من الصعوبة تمييزها عن المصادفات ، وعن التقاء الأفكار أو حتى أسلوب التعبير عن هذه الأفكار .

وبعد وضع جدول التأثيرات والمنايع ، ووضع الأضواء على الجو الذي ولد فيه الأثر الأدبي ، لا يجب الاكضاء بذلك على انه إحاطة

بظروف خلق هذا الأثر، ويجمع خصائص شخصية الأديب. إذ الكثير من المطالعات والصدقات، ينشأ بالصدفة ولا يدوم إلا بمقدار ما فيه من نفع، وغالباً ما تحيد الأديب عن خط سيره الأساسي. من هنا أن المتابع والتأثيرات تساعد على تحديد تفرد الأديب. وإذا كان موروا، مثلاً، تحوّل نحو انكلترا، ومونترلان نحو أسبانيا، فلأسباب وميول عميقة: أبرزها أن رهاقتهم نحو أفكار معينة، وجهتهم الى بلاد لا الى سواها. فانطبعوا بها وطبعوا بها قراءهم.

هذه الايضاحات أعلاه، تبدّد الحذر من أن يكون البحث في المتابع هو نهاية الغايات في عمل الأدب المقارن. فإذا فعل الأدب المقارن من أعمال موجهة في هذا المجال؟

١ - المجاهات أجنبية في الأدب الفرنسي

من كتاب فيليب فان تينغيم «التأثيرات الاجنبية في الأدب الفرنسي» (١٩٦١)، يمكننا أن نحدد، في تاريخ الأدب الفرنسي، بين ١٥٥٠ و ١٨٨٠، الأبحاث الموضوعية حول هذه التأثيرات. فإثر تلك السلسلة من الغزوات المسالمة التي حملت الى فرنسا أنماطاً وأنواعاً وأفكاراً من الخارج، كان لفرنسا أن تعرف ظاهرات، نعرض، في ما يلي، أبرزها.

القرن السادس عشر، في فرنسا، هو عصر التأثيرات الإيطالية.

فالشعراء الفرنسيون تأثروا بـترارك. ومارغريت دو نافار استلهمت قصص بوكاشيو. ومونتاني قطف «المحاولات» من تأثير آيات إيطالية. وجوها شان دوييلي يذكر الابداع الإيطالية ليستطيع، في كتابه برهنة أن اللغة «الشعبية» يمكنها أن تبذل نجاحات كما اللاتينية أو الإغريقية. وكذلك كان تأثير النهضة الإيطالية قوياً في ميدان الفنون الجميلة وميدان الفكر السياسي.

والقرن السابع عشر، هو الآخر، مشبع بالثقافة الإيطالية. من هنا ظهور محاولات الكتابة في ملحمة مسيحية، ومحاولات الكوميديا التهرجية. انما، في بداية القرن، كان تأثير اسبانيا أقوى، على الأقل في المسرح (وخاصة مع كورناي). ومع اليسوعيين، دخلت إلى فرنسا موجة روحانية أسبانية جعلت المدرسة الفرنسية تتجذر، أكثر، في شخصيتها. والعصر الكلاسيكي البحت، أمحت فيه التأثيرات المباشرة، لكن معاصري راسين ظلوا يقرأون دون كيشوت، وكانوا يعرفون دون جوان، بصيغته الإيطالية، وهو على موضة العصر قبل أن يصوغه موليير شخصية خالدة.

في القرن الثامن عشر، سيطر، أكثر، تأثير انكلترا. فتشبع الفلاسفة الفرنسيون بآراء لوك، والقانونيون بمفهوم «التشريع الانكليزي»، والمهندسون بصورة «الحديقة الانكليزية». واكتشفوا شكسبير، ويكوا وهم يقرأون «بامبلا» و«كلاريسا هارلو»، وتأثروا

جداً بأبطال أوسيان ماك فرسون . وفي النصف الثاني من القرن . جاءت غزليات غستر ، وشخصية «ورثر» غوته ، فأضفتا روحاً ألمانية مسحت الحزن الذي كان ، والعاطفة المائعة .

على أن التأثيرات الألمانية ، لم تظهر واضحة إلا بدءاً من القرن التاسع عشر ، حين ألمانيا رسمت في الرومنطيقية الاقطاعية إطاراً من الحياة الألمان لم يرفضهم الرومنطيقيون الكبار ، كما كان لفلسفتها (هردر ، كانط ، وهيغل في ما بعد) أن تطبع كوزان وميشليه وتين ورينان وأتباعهم ، وأن تدخل طرائقها النقدية في صلب الفكر العلمي الفرنسي . وعندما أدت ، عميقاً ، في الفرنسيين ، فلاسفتهم ومؤرخيهم وشارحيهم ، حملت المانيا الى الفرنسيين اكتشافاً جديداً : فاغزر ، الذي لم يقتصر تأثيره على الموسيقين فقط ، بل تعداهم إلى الشعر الذي أعاد له جرسه الموسيقي ، مما بدا في «الجملة الفاغزرية» ،

وفي أواخر هذا العصر ، ظهر التأثير الروسي جلياً على الروائيين وعلى القراء أنفسهم ، حاملاً إليهم التحرر من الدكتاتورية العقلانية التي طبع فاغزر بها الشعراء ، فصاروا يحلمون انجيلياً لدى قراءتهم تولستوي ، ويفكرون بالشرق مصدراً لكل حياة صوفية .

أما التأثيرات الخارجية التي طبعت القرن العشرين الفرنسي ، فن التسرع استنباطها الآن . لكننا نلاحظ ، بدءاً من ١٩٣٠ ، موجة أميركية حملت تقنيات جديدة في الرواية ، وإيجاء بالمواضيع القائمة .

وفي كل هذا ، ما سوى خصائص عامة . فالتأثيرات الإيطالية لم تنطفي قطعاً مع نهاية القرن السادس عشر ، ولا الانكليزية مع قبيل الثورة . فما هي ، حسب أعمال المقارنين ، أهمية التيارات الاجنبية التي آثرت في الأدب الفرنسي ؟

١ - القرنان السادس عشر والسابع عشر : ثمة ، عن النهضة الفرنسية ، غير مؤلف عام ، أبرزها : «البراركية في فرنسا خلال القرن السادس عشر» لجوزف فياني (١٩٠٩) . ولم يوضع كتاب يفصل التأثيرات الاجنبية لدى كل مؤلف . أما عن السابع عشر ، فالأمر أوفر قليلاً . وعام ١٩٠٢ ، ظهرت ثلاثة كتب (من سيغال وهوزار وبروتيار) حول «كورناي والمسرح الاسباني» . وعام ١٩٠٦ ، وضع مرتينانش كتاب «مولير والمسرح الاسباني» . لكن الكتب الموضوعية حول أديب كبير فرنسي واحد ، قليلة . ودراسة بالدنشبرغر حول «الخلفية الاسبانية في حكم لاروشفوكو» (١٩٣٩) ، تلتني أضواء على ما يمكن أن يغنمه القرن السابع عشر من الدرامات المقارنة ، إذ ، في المؤلفات الفرنسية البحتة ، أثر لطابع أجنبي ، وجب كشفه اغناء للأدب الفرنسي .

ويبقى أن هذا القرن السابع عشر ، على الأقل في نصفه الثاني ، تلقى من الخارج أقل من الفترات الأخرى . فالبعثات الاجنبية في آثار بوالووراسين ، قليلة إزاء التأثيرات اليونانية اللاتينية ، من هنا أن

طريقتهما شخصية ووطنية أثرت في مواطنهم وفي سواهم (بوب مثلاً اقتبس عن بوالو، وفشل راسين خارج فرنسا).

٢- القرن الثامن عشر: من المفارقات، أن عصر الكوزموبوليتية لم تصدر عنه إلا دراسات قليلة مخصصة للتأثيرات الخارجية التي تلقاها الأدباء الفرنسيون. فحتى اليوم، أتبع المقارنون الأثر الذي تركه في فرنسا كبار الأدباء الانكليز والألمان، كما شكسبير وأوسيان وغوته، دون أن يأخذوا أدبياً فرنسياً واحداً، ويدرسوه، كما ماريفو. ومونتسكيو وفولتير وروسو.

من هنا. أن بول هازار، في درس أكاديمي له غير منشور، درّسه خلال عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ في الكوليج دو فرانس، حاول أن يقيم توازناً بين التأثيرات الخارجية على أولئك الأربعة الأدباء، وما آثروا هم في آداب أخرى أوروبية. من هنا، أنه أقام خلاصة لدراسات جزئية كما التي وضعها جوزف دوديو حول «مونتسكيو والتقاليد السياسية الانكليزية» (١٩٠٩)، أو «غريم» حول العلاقات بين ماريفو وريتشاردسون (١٩٢٤).

٣- القرنان التاسع عشر والعشرون: كثيرون، من المقارنين اهتموا بالتأثيرات الخارجية على كبار الأدباء الفرنسيين. وكتاب بالدنشرغر عن بلزاك (١٩٢٧)، ينضوي في سلسلة تمتد من «التأثيرات الأميركية على آثار شاتوبريان» (شينار- ١٩١٨) الى

«فكتور هوغو وألمانيا» (ديديان - ١٩٦٤). ومن هذه السلسلة ،
مؤلفات :

- لارا : التقاليد والتأثيرات في آثار شارل نوديه (١٩٢٣)
- نرونشون : رينان والخارج (١٩٢٨)
- باليسك : ماترلينك وألمانيا (١٩٣٨)
- لانغ : أندريه جيد والفكر الألماني (١٩٤٩)
- فراندون : شرق موريس باريس (١٩٥٢)
- ايسكارييت : انكلترا في آثار مدام دو ستال (١٩٥٤)
- أندروود : فرلين وانكلترا (١٩٥٦).

وفي أبحاث أخرى ، تم درس التأثيرات الاجنبية ، على آثار
فينيسي ومونتالامبير ، او العلاقات الثقافية بين جوزف دو ميتر
وانكلترا ، وثمة دراسات تهيأ حول تأثير الهند في شعر لامرتين . مما
يدل على أن القرن التاسع عشر لم يدرس بعد كفاية ، وسيدرس على
وجه أكمل .

٢- المجاهات فرنسية في الآداب الأجنبية

كما تلقى الأدب الفرنسي تأثيرات خارجية ، كذلك هو أثر في
الخارج .

بدءاً بكالفان ، وإن لم يكن تأثيره أديباً . أما القرن السادس

عشر، فلم يؤثر كثيراً. وأما القرن السابع عشر، مع الكلاسيكية، فأفسح في المجال لاشعاعات فرنسية في الخارج، كانت هيمنات لغوية وفكرية وفنية، بلغت ذروتها في منتصف القرن الثامن عشر. ثم خفت اشعاعاتها عند ١٧٨٩، لتنتفض نهائياً بعد الثورة.

في انكلترا، طمح بوب ان يكون بوالو الانكليزي. والسرودجر دو كوفرلي، صفق طويلاً لترجمة «اندروماك» التي وضعها أمبروز فيليبس عام ١٧١٢، فجاءت أحد اكبر نجاحات العصر المسرحية.

في ألمانيا، كاد لا يكتب فريدريك الثاني إلا بالفرنسية، وهو حرص على نشر الاشعاع الفرنسي في بلاده. وحاول فيلند أن يكون «فولتير ألمانيا».

في إيطاليا، كان اغلب الأدباء يتكلمون الفرنسية ويكتبونها «سيزاروتي، غولدوني، باريتي، ريكوبوني». وأكثر: قامت حركة في ايطاليا تدعو إلى التعمق في الفرنسية.

في روسيا، دعت كاترين الثانية، ديدرو وفالكونيه، وكانت دعت دالمبير، فدخلت الفرنسية الى البلاط.

في بولونيا، حاول ستانيسلاس أوغست بونياوفسكي، صديق مدام غوفران، أن يدخل الثقافة الفرنسية الى بلاده (راجع كتاب جان فابر «بونياوفسكي وأوروبا الاشعاع» - ١٩٥٢).

وتكلمنا، آنفاً، عن الأثر الفرنسي في هولندا.

وفي غمرة هذه الاشعاعات الفرنسية على أوروبا . وحدها اسبانيا بقيت خارج التأثير الفرنسي ، وحافظت على شخصيتها .

وكانت الثورة . وتغيرت طبيعة التأثيرات الفرنسية . صارت سياسية ، أو بتعبير اليوم ، ايدولوجية ، وانفعل الأدباء والمفكرون بالأحداث التي عصفت بباريس ، فاذا ووردسوورث يعبر المانش ، وكانط يغير عاداته اليومية . وتدرجياً ، اتلفت أوروبا عسكرياً وروحياً . وهكذا الأمم : تمردت ضد تأثير أتي واندثر ، بصرف النظر عن أمانتها الفرنسية أو مناهضتها لمبادئ ١٧٨٩ . وهكذا ، أثرت الأحداث السياسية والعسكرية في تسريع تطور طراً في نهاية القرن الثامن عشر على الصعيد الثقافي : ليسنغ أستبعد كورناي ، وفخته ، بعد إينا ، نادى بالأمة الألمانية .

والرومنطيقية ، قبل أن تشع في فرنسا ، كانت معروفة في انكلترا وألمانيا : إذ « ورثر » ظهر عام ١٧٧٤ ، فيما « رينيه » عام ١٨٠٢ ، وهالموشحات الغنائية » الانكليزية ظهرت عام ١٧٩٨ . فيما « التأملات » عام ١٨٢٠ . من هنا نسأل ، ماذا يمكن أن تأخذ عن فينيسي ولامارتين وهوغو ، بلدان عرفت . قبلهم ، الثورة الرومنطيقية .

وعلى العكس ، فنهاية القرن التاسع عشر ، مع ورثة بودلير الرمزيين ، وروائيي الواقعية والطبيعية ، عرفت تأثيراً فرنسياً كبيراً في

الخارج . من الشواهد .

- في انكلترا : ازدهرت الرمزية الفرنسية مع وايلد ومور وسايمونس ، واشتعل زولا في نجاح مذهل ، وكثرت ترجمات الروائيين الفرنسيين .

- في ألمانيا والنمسا . تشبّع ريلكه وستيفان جورج من الشعر الفرنسي .

- في روسيا . تشبّع الفن الروائي من بلزاك وموباسان وزولا .
ومن هذا المدّ والجزر في التأثيرات والتأثرات ، كانت مرحلتان مزدهرتان فرنسيتان :

- المرحلة الكلاسيكية - الفلسفة .

- المرحلة الرمزية والطبيعية .

من هنا عدم التناسق في التسلسل التاريخي لدى الأدباء الذين بحث المقارنون عن تأثيراتهم الفرنسية . وكذلك لدى الأدباء الفرنسيين الذين خضعوا لتأثيرات أجنبية .

فماذا عن هذه التأثيرات الفرنسية ؟

١ - الأدب الانكلو-أميركي : يتجلى ممثل الكلاسيكية الفرنسية البريطاني . في كتاب اميل اودرا «التأثير الفرنسي في آثار بوب» . (١٩٣١) . وكان أ . سلز درس «المنابع الفرنسية لدى غولد

سميث . وخارج مقالات متفرقة في الصحف والمجلات ، لا أثر قيماً
ظهر في تلك الفترة حول هذا الموضوع .

على العكس ، ظهرت أعمال جماعية تبرز الاحتفاء الذي لاقته في
انكلترا وأميركا ، التأثيرات الفرنسية الطبيعية والرمزية (راجع الفصل
السابع) . وهي عاجلت ذلك لدى اوسكار وايلد وهنري جيمس
ويرناردشوت س . اليوت . وظهرت مؤخراً « السيرة النقدية »
لسايمونس ، وهي أثر مهم يغم منه المقارنون كثيراً .

٢ - الأدب الألماني : هنا أيضاً ، ثمة دراسات عامة لا تركز
حول أديب واحد . فهذا لويس رينو ، وضع خطوطاً عريضة لما أثر
الأدب الفرنسي في الثقافة الألمانية . لكن هذه القفزات خطرهما كما لها
لذتها : إذ قد يصار الى ابراز لقاء أو حدث ، في معزل عن أسبابها .
والمطلوب ، في اي حال ، الإكثار من الدراسات المتخصصة
المحصورة في أديب واحد ، كما دراسة فوكس « التأثيرات الفرنسية في
آثار فايلند » (١٩٣٤) .

٣ - الآداب الجنوبية الأوروبية : منذ القرن السابع عشر . ما
عادت نشطت العلاقات الأدبية الفرنسية الاسبانية ولا الفرنسية
الاطالية . لذا ، ليس من الصدق ، في الميدان الاسباني . ألا تظهر
إلا دراسة واحدة ، وتعنى بأديب من نيكاراغوا ، وضعها مابس
حول « التأثير الفرنسي في آثار روبن داريو » (١٩٢٥) . وكذلك في

الميدان الإيطالي ، ظهرت دراسة موغان حول «كاردوتشي وفرنسا» (١٩١٤). وأفضل الكتب ، تلك التي درست بحمل الحقبة التاريخية ، كما ، مثلاً ، الكتاب الذي دشن فيه بول هازار حياته كعالم مقارن : «الثورة الفرنسية والأدب الإيطالي» (١٩١٠) . وكذلك «التأثير الفرنسي في إيطاليا خلال القرن الثامن عشر» (١٩٣٤) ، لبول هازار وهنري بيداريدا ، ومنها نستطيع ان نتبين أهم ما تأثرت به إيطاليا من الفكر والأدب الفرنسيين ، طوال مائة عام . أما حول القرن التاسع عشر الإيطالي أو الإسباني ، فلم يظهر أي كتاب في الموضوع نفسه .

اذن ، هذا النوع من الدراسات . كان أقل زخماً من سواه . ربما لقومية مترممة كانت تمجّب التأثيرات الأجنبية على أدباء البلاد . بينما الفرنسيون ضوأوا على التأثيرات الخارجية لدى هين وانونزيو وأندريه جيد ، وكل منهم قد يكون موضوع دراسة من نوع «الاتجاهات الأجنبية لدى هونوريه دو بلزاك» . فالمنابع . لا تسيء الى شخص الأديب ، بل تضوي عليه أكثر . واستنباطها يؤدي الى فهمه وربما الى زيادة تقديره واحترامه .

٣- منابع أجنبية لأدباء أجانب

قليلة هي المؤلفات الفرنسية المخصصة لهذا النوع الثالث من الأبحاث . إذ ليس من السهولة التمكن من لغتين وأدبين اجنبيين في

عمق ، لاستخلاص ، مثلاً ، التأثيرات الاسبانية في كتاب ألماني .
واكثر الكتب التي في هذا الميدان ، كتبها مؤلفون غير فرنسيين إلا
قلائل ، أبرزهم : بونيه موري حول « الأصول الانكليزية لقن الغزل
الأدبي في ألمانيا » (١٨٨٩) . ويتولى حول « التأثير الاسباني على
ليسنج » (١٩٠٩) . إضافة إليهما ، ثمة فصول أدرجت في خاتمتها
جلور الأديب الاجنبية ، كما لكارليل في « غوته في ألمانيا » الذي
وضعه جان ماري كاربه .

٤ - نموذج لاف : بلزك

في دراسته « الاتجاهات الأجنبية لدى هونوريه دو بلزك »
(١٩٢٧) ، يبين فرنان بالدنشبرغر كيف أن البحث في المتابع خارج
الوطنية ، يساعد في فهم تكوّن الأثر الأدبي وفي فهم شخصية
صاحبها . وليس من ينازع بلزك قدرته ولا موهبته الابداعية . ومن
قراءة بالدنشبرغر ، نكتشف أن هذا الرؤوي لم يكن « أسير » رؤياه ،
لأن الموجة التي كانت غالبية في عصره ، إضافة الى فضولاته
الخاصة ، لم تأسر عبقريته ، بل ساعدتها على التفتح والنضج .
وبلزك ، الذي كان في عشريناته يوقع باسم « آن رادكليف » أو
« هوراس دو سانت أوبين » ، شارك شغف معاصريه برواياته
السوداء ، متخطياً آن رادكليف وماتوران . وهذا النفس ، لم يطغ
فقط على روايات شبابه ، بل بقي في رواياته اللاحقة والشهيرة ، كما

«دوقة لانجيه» (١٨٣٤) ، حيث كتب العبارة التي جاءت منها جأ للواقعية في الأدب : «إن ملكة الملاحظة هي كل الملكة الانسانية» ، وورد ما يذكر بجنونه العظيم في عقدة رواياته وأكثر مقاطع الآخرين . (رواية «١٣» ، ومشهد الحديد المحمر) .

حوالى ١٨٢٢ ، كان لمدام دو برني ، ان تصقل أسلوب الروائي بعدما صقلت قلبه بقصة حب كبير . وجعلته يقرأ «ورثر» . وامترجت ، هنا ، تجربته الشخصية وتكوناته الأدبية ، دافعة اياه حتى بلغ القمة في روايته «زنبقة الوادي» (١٨٣٥) .

ولكن ، فيما كانت تنمو فيه البذور الورثية ، كان له أن يقتحم الميدان الأدبي باسمه الحقيقي هذه المرة . ويدا تأثره ، في روايته «الثائرون» وازحاً بوالتر سكوت الذي عرفه بلزك منذ ١٨٢١ . وانها لقيا عبقرى ناضج وعبقرى ناشئ . لا مجرد تأثير من الأول تلقاه الثاني في بجانية . وحوالى ١٨٢٥ . لم يعد ثمة جديد لقراءة سكوت أو تقليده ، وكان لبزك وحده أن يقرأ قصص واغزلي ليطورها ويطبعها بأسلوبه الخاص .

خلال السنوات الأخيرة من عودة الملكية الى الحكم في فرنسا . كان من «غال» أن يؤثر في معالجته وتفصيلها . وظهر ذلك واضحاً في «التاريخ الطبيعي لذي اليبدين في المجتمع» ، الذي التزم بكتابه مواطنه الفرنسي ، حوالى ١٨٣٠ ، حول : حب التفاصيل

«الفراسية» ، والمبدأ الكبير في التأقلم بالبيئة ، وحبّ القائل الحيواني في وصف الانسان . ولكن ، كما بالنسبة لهوفمان ، الذي اكتشفه بلزاك في الفترة نفسها ، وكما بالنسبة لسويدنبرغ الذي قادته إليه ايفلين هانسكا منذ ١٨٣٢ ، تعود الأهمية للانطباع التأثري الذي صار شخصياً ، أكثر مما تعود الى المنابع ، بمعناها الضيق . من هنا أن «الكوميديا الانسانية» تدين بالكثير لهوفمان ، وغال ، وسويدنبرغ ، ويمكن تمييز الطبقات المتتالية التي لم تمنح شخصية بلزاك الذي تفرّد بشخصيته المتميزة .

ودرس بالدنشيرغر الجذور الأجنبية للابليسية البلازكية : «فاوست» حيث لم يجد بلزاك غير الأبلسة ، و«روبير لو ديابل» (روبير الشيطان) لمايربير - (١٩٣١) ، الذي أثر كثيراً في بلزاك بحيلة وآفاقاً . وبلدكر ، هو ، أهواءه المهاجرة نحو اسبانيا وايطاليا . ولكن ، في السنوات السابقة لـ ١٨٣٠ ، (عدا سويدنبرغ) ، يبقى «غوته» هو ذا التأثير الأكبر . وهنا ، نلاحظ مدأً وجزراً في التأثير والتأثير . فنجاح «لويس لامبير» ، في المانيا (١٨٣٤) ، أثار اهتمام صاحبه . ربما لأنه وجد فيه ذكرى بطرك وعمار الذي مرّ في «ورثر» و«فاوست» ، وظهر في «المرهف المتواضع» (تأثراً بحبّ بيتينا برنتانو) . الذي سيحمل له شهرة أوروبية عظيمة .

من هنا أن قراءات بلزاك الأجنبية لم تقيده ، بل ، على العكس ، ثبته بشخصيته الحية والمتميزة التي طبعته .

مخاتمة : ليس صعباً ، ولا طويلاً ، ثبيان الابحاث التي عملت على
المنابع الأجنبية : لا شيء تقريباً حول أدباء فرنسا في القرنين السادس
عشر والثامن عشر ، وبعض الكتب حول السابع عشر. أما بعد فترة
الرومنطيقية ، فظهرت مجموعة أبحاث لكنها لم تكتمل عمقاً .

وأما المصادر الفرنسية التي أثرت في أدباء أجنب ، وهي مذكورة
في غير جدول (مثلاً : «التأثير الفرنسي في ألمانيا» للويس رينو) ،
فأثارت دراسات أقل . وإلى بعض المؤلفات القديمة ، لم ينص العلماء
الفرنسيون على استخراج التأثيرات الدخيلة غير الفرنسية ، في الآداب
الأجنبية .

ونحن بيننا أسباب هذا القحط ، في تفصيلها . والدراسات
«الدورية» ، كما دراسة بالدنشيرغر عن بلزك مثلاً ، طموحة لكنها
ليست جميعها على المستوى . فهي تعالج الأدباء الكبار أكثر مما
تعالج التيارات . واتباع أهمية شكسبير في فرنسا أو ألمانيا ، يزيد من
فهم كلا البلدين ، انما لا يضيف شيئاً إلى معرفة شكسبير . وكذا
الأضواء الملقاة على هوغو أو على شيلر ، هي جزئية ، ولا تضيئ إلا
على جزء من عبقريتهم . وغالباً ما تكون مستلزمات النوع الأدبي ،
هي التي ترغب الباحث على التوقف عند ترجحات تعيسة ، وسرقات

أدبية وآراء نقدية غير موضوعية . نينا ، على العكس ، استخراج ما غم بلزك من قراءاته الأجنبية ، وتميز الفيض الذي أثير في التأثر من الأجنبي ، وامكانيات صهرها ، جميعها تؤدي الى فهم أكثر لبلزك . من هنا ، أن « الكوميديا الانسانية » ، هي خلاصة وتنبؤ ، لا يمكن فهم هذا إلا اذا بفهم تلك ، حيث التأثير الاجني واضح وجلي . على المقارنين إذن ، ألا يتخلوا عن البحث في المنابع التي قد تكون إحدى أهم الفضائل التي تساعدكم على الغوص ، أكثر ، في التاريخ الأدبي لكل بلد .

الفصل السابع

التيارات الأوروبية الكبرى

الأفكار ، المبادئ ، المهاجر

الأدب المقارن وتاريخ الأفكار: بعض التبادلات الثقافية والروحية بين الأمم ، تابع ، واضحاً ، من تاريخ الفلسفات أو الاعتناقات . فتأثير كانت أو لوثر في فرنسا ، لا يمكن أن يدرسه إلا فيلسوف أو مؤرخ أديان . طبعاً ، يجب أن يكون واحدهما ضليعاً في الأمور الألمانية ، وألا يهمل بعض التمثلات الأدبية للمبادئ المطروحة ، لكن هذه الدراسات لا تخرج ، وحدها ، الى الأدب المقارن .

لكن ثمة تبادلات أخرى ، أدبية بحتة ، وإن هي مرتبطة بمفاهيم أكثر طموحاً في التوسع ، كما انتشار البرتركية خارج إيطاليا ، أو الكلاسيكية خارج فرنسا ، أو الرومنطيقية خارج ألمانيا ، وجميعها من صلب أعمال المقارنين .

إنما بين التبادلات الفلسفية أو الدينية والتي نسميها أدبية ، ليس التحديد واضح المعالم دائماً . فقدرتها على التعبير ، ونوعية تفكيرها تجعلان من بعض الأدباء ضحايا الفلسفة والأدب . فالأدب

الفرنسي ، أعطى سلسلة رائعة من الأفكار العظيمة التي أطلعت أديباء كباراً ، كما مونتاني (١) وباسكال (١) وروسو (١) وآخرون . لكن كل دارس معجب بهم بمقدار ما يفرح في جذورهم ، دون أن يتوصل الى سبر شخصية الواحد منهم . فمثلاً ، لا يمكن التوصل إلى دراسة كاملة عن تأثير روسو في انكلترا ، دون النظر إلى هذا التأثير من الزاويتين الفلسفية والأدبية . ثم ، إذن ، جامع مشترك للأفكار الكبيرة والترعات الاسلوبية الكبيرة ، يلتقي فيها المقارنون والفلاسفة . إضافة إلى هذا ، فالأفكار الدافعة ، التي تقولب الأفكار وتحول القلوب ، تتحرك بواسطة الأديباء . ولم يكن للوك هذا التأثير في فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، لولا الذين « بسطوا » أفكاره ، من « الفلاسفة » الفرنسيين . ومبادئ جان بول سارتر الفلسفية ، مشبعة من المبادئ الوجودية الألمانية ، لكن القراء أخذوا برواياته ومسرحياته ليصلوا إلى وجودته الملحدة . وطالما أن الأدب ينشر الآراء حتى التجريدية ، ويحركها ، فعلى المقارنة أن تسهم في تاريخ الأدب في شكل لا يحارى .

الأدب المقارن والأدب العام : كان بول فان تينغيم يقترح أن يسمى « الأدب العام » ، ذلك الشكل السامي من المقارنة ، الذي يتجاوز صعيد العلاقات المزدوجة ، وينظر إلى حركات الأفكار أو

(١) صدر عن منشورات عويدات كتاب مستقبل عن كل شخصية من هذه الشخصيات الفكرية . الناشر

التيارات ، نظرة دولية تتحوّل إلى الغربية (راجع كتابه «التاريخ الأدبي لأوروبا وأميركا ، منذ عصر النهضة حتى اليوم» - ١٩٤١). من هنا أن الأدب العام ، في رأيه ، يشمل كل ما هو أدبي صرف : تاريخ الأنواع الأدبية والأشكال والمواضيع . وهذا ما يوفر النقاشات النظرية التي غالباً ما تكون عديمة الفائدة في هذا الميدان . وأمام الأدب المقارن ، لا يدعى إلا إلى عرض المناهج والنتائج . لكن القارئ الجاهل ، أو غير المهتم في الغوص على الأعماق ، يجب أن يدعى إلى تمييز عبارة «أدب عام» تعني مجموع الدراسات المقارنة التي يعالجها هذا الفصل من هذا الكتاب .

لتداخلات : هذا الشق من الأدب المقارن ، وإن كان يعني غالباً بوقائع تعود إلى تاريخ الأفكار أو إلى الأدب العام ، لا يمكن عزله عن أبحاث أخرى ، كما ، مثلاً ، دراسة تأثير نيتشه في فرنسا ، والتي وضعتها جنيفاف بيانكي ، والتي بدت صفحة من تاريخ فرنسا الروحي لا تقل أهمية عن كونها ، أيضاً ، صفحة من تاريخ فرنسا الأدبي . فدراسة المواضيع الأخلاقية والدينية والعاطفية ، تترج غالباً بدراسة الأفكار . والموضوع ، ليس إلا الفكرة المبسطة ، إنما قارضية نظرة فلسفية أو أخلاقية ، للفرد أو للمجتمع . فأنثيغون . مثلاً ، تجسّد أولوية السلام الفردي ، وكريون يجسّد متطلبات الحياة الاجتماعية . وفي الأدب ، أكثر من أي ميدان آخر ، تتأسك الجوانب كلها ، وكل انقسام بينها ، هو ، في الدرجة الأولى ، نقي .

١ - المبادئ والأفكار الأدبية

التاريخ الدولي للأفكار الأدبية ، لا غنى عنه لفهم وتحديد المبادئ الأكثر - ظاهراً - وطنية ، من التي تسيطر دورياً على الآداب المختلفة . وهذا ميدان تم الغوص فيه ملياً .

مؤلفات «البراركية» في فرنسا في القرن السادس عشر ، (١٩٠٩) لجوزف فياني ، أو «الإنسانية القارية» في انكلترا (١٩٢٦) لفرانك شويل ، أو «ايراسم واسبانيا» (١٩٣٧) لمرسيل باتايون ، جميعها تتخطى البحث في التأثيرات المعزولة عن الشكل والمضمون إلى تكوين صورة جمالية وخلقية .

لكن النهضة (في مطلع القرن السادس عشر) شهدت ولادة تيارات مختلفة وذويانها وانفصالها ، منها : الانجيلية ، الإنسانية ، الإصلاحية ، البراركية ، حتى تصعب ملاحقة تيار واحد وتدرجه في كل أوروبا . وليس في هذا الموضوع إلا دراسات جزئية .

ومنذ دراسات أوجينيو دورس ، بدأت النظرة إلى أدب القرن السابع عشر ، من منظور الباروكية . وإذا هذه ، ما زالت تثير جدلاً ، فلأنها تتخذ مداها الأوسع في الأدب المقارن مأخوذاً بمعناه التاريخي أو ، كما يراه ريمالك ، «مقارنة» الخلق الأدبي بـ «سائر طاقات التعبير الإنساني» (وهنا ، خاصة ، الفنون الجميلة) . أما الكلاسيكية ، وهي الأكثر تقليدية ، فعناصر تاريخها الدولي متوفرة في دراسات

مختلفة حول التأثيرات. من هنا، الدراسات الوافية حول تأثير بوالو - أي الجمالية الكلاسيكية - في إيطاليا وهولندا وانكلترا، انما لم يتم بعد عالم مقارن واحد يعطي نظرة شاملة على الكلاسيكية الفرنسية في انكلترا، ويدرس فيها الالتحامات والمقاومات والاقتراسات والخيانات. وكذا بالنسبة لألمانيا، فما سوى من دراسة لويس رينو حيث المقارنة بين الكلاسيكيتين الفرنسية والألمانية، يمكننا فهم تأثير غوتشد وليسينغ بوالو.

وفي القرن الثامن عشر، بعد التمهيدات السابقة للرومنطيقية، ظهرت في ألمانيا وانكلترا، الدلالات الأولى للرومنطيقية في معناها الدقيق. وفي كتابه «بحث في الجمالية وجمالي القرن الثامن عشر» (١٩٢٥) درس فولكبيرسكي الانتقال من الذوق الكلاسيكي إلى جمالية الإحساس. وكذلك روبرتسون، عام ١٩٢٣، في كتابه «أصل النظرية الرومنطيقية»، تتبع هذه المدرسة من إيطاليا إلى سويسرا، ومن فرنسا إلى ألمانيا. أما دراسة التطور المتوازي للتيارات والمواضيع السابقة للرومنطيقية في البلدان الأوروبية، فتجب العودة، من أجلها، إلى موسوعة بول فان تينغيم في ٣ مجلدات: «الما قبل الرومنطيقية» - ١٩٢٤ - ١٩٣٠ - ١٩٤٧، حيث تظهر، واضحة، صور شعر الليل، والقبور، والغزو الشكسبيرى، ونجاح غسز، والتيارات البالغة التأثير، والعوامل المتنوعة ذات التأثير الأوروبي. وخلال هذه الثلاثة الاجزاء، نشهد تطور ظاهرة أدبية

تتخطى الحدود لتطبع كل آداب أوروبا .

ومع الثورة الرومنطيقية ، احتلت ألمانيا وانكلترا مكان فرنسا في دورها الكان رائداً زمن الكلاسيكية والفلاسفة . وأقام مارسال مورو جدول «الرومنطيقية الفرنسية في انكلترا» (١٩٣٣) بعدما أبرز مارتيننش تلقيا الحار في أسبانيا (١٩٢٢) ، فيما أقام بول فان تينغيم - في نصوص اختارها وعلق عليها - في كتابه «التيار الرومنطقي» (١٩١٢ - ١٩٢٣) ، جدولاً غنياً قارن فيه المعادلات والمفارقات بين الأشكال الانكليزية والألمانية والفرنسية والايطالية لتيار ادبي أوروبي واحد . وأخيراً ، قام فارينيلي عام ١٩٢٧ ، وأصدر دراسة متكاملة حول «الرومنطيقية في العالم اللاتيني» .

هذا الأثر الفرنسي اللافت ، الذي كان أمحى في المرحلة الرومنطيقية ، عاد مع تأثير بودلير وفلوبير (راجع الفصل السادس) ، لكنه عاد مع بعض التأخير ليمارس فعاليته :

- في ألمانيا ، حيث انيد ديوثي أبرز ما للرمزية الفرنسية من تأثير على التجديد الشعري الذي تزعمه ، منذ السنوات الأخيرة للقرن الماضي ، ستيفان جورج وآخرون .

- في أميركا ، حيث رينيه تويان أقام التتابع الذي يربط رؤى السنوات ١٩١٠ - ١٩٢٠ ، بتأثير بودلير وكلوديل .

- في انكلترا ، حيث ولم فريرسون وفارمر تتبعا تطوّر الطرائق

الطبيعية والمواضيع ما قبل الرمزية .

- في روسيا حيث دوشان درس «تأثير الرمزية» على الشعر .
حول هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) ، كان للدراسات العديدة ذات الطابع الأدبي ، أن تظهر ما تدين به ، لفرنسا ، الآداب الأجنبية . وما ينقص ، كما للقرن السابع عشر ، ظهور تحقيقات عامة شبيهة ، في أهميتها وإعلامها .
بتحقيقات بول فان تينغيم وفارنيلي ، حول ما قبل الرومنطيقية وحول الرومنطيقية . وإذا كان غي ميشو كتب تاريخ الرمزية الفرنسي .
فتاريخها الأوروبي ينتظر ، بعد ، من يكتبه .

٢ - الأفكار الدينية والفلسفية

قلنا ، في مقدمة هذا الفصل ، إن بين تاريخ الدبانات والأدب المقارن ، جامعاً تتعادل فيه معطيات الاثنين معاً . وفي هذا المجال ، يكون فينلون مثلاً نموذجياً لهذا المعطى المزدوج ، إذ تأثيره المدهش خارج فرنسا لم يكن مجرد مبدأ . فالأسلوب الفينلوني يتجلى في الموقف الروحي كما في التعبير الأدبي . والدراسات التي ظهرت عن تأثيره - في هولندا بقلم مارتان عام ١٩٢٧ ، وفي إيطاليا عام ١٩١٠ بقلم موغان - أظهرت الفقر في كون الاتجاهات الفينلونية في ألمانيا لم تستحوذ إلا على ومضات سريعة ، تبقى أغنى منها في انكلترا التي لم يظهر شيء عنها في هذا الموضوع . وهو هنا عمل المقارن : استخراج

المجلوبات الوطنية وتأثير الأفراد في التيارات الروحية الكبرى التي
اشتهرت في أوروبا. وهذا ما أثبتته ديرييه في إعادة وضعه ، ضمن
الرؤية الأوروبية ، أفكار لأمنيه الدينية وأفكار أنصاره .

أما انتشار الأفكار الفلسفية ، عدا في القرن الثامن عشر ، فيعود
في فرنسا إلى ظاهرة واحدة : تاريخ الفلسفة . وخارج فولتير وديدرو
وسواهما من كانوا مبسطين للفلسفة وأدباء أكثر منهم فلاسفة ، لم تثر
للماورائيات مواهب فرنسية بين الأدباء . ولكي يسمى الدين الى
دهمها ، أو نقضها ، شخصاً مهماً كما مونتاني أو باسكال أو
شاتوبريان أورينان . وفي سائر الدول الأوروبية ، تركزت شهرة كانط
ويركلي على انها مفكران أكثر منها أديبين . إذن ، فالمقارن ، لا يعتبر
الفلسفة ، غالباً ، إلا في درجة تساويها بالأدب ، حين تنزل إلى
حيث تثير المفاهيم الاخلاقية والفنية لجماعة من الأدباء أو لواحد منهم
كبير . فالفيلسوف ، لا يمكن له أن يثير فولتير ازاء لايتز أو غوته ازاء
سينوزا ، بينما المقارن يجد فيهم مادة خصبة من حيث تأثيرهم ،
واتنشاره . وغالباً ما ، في هذا المجال ، تم البحث عن المنابع
الفلسفية لأديب كبير أكثر مما عن المنابع الأدبية لأحد الفلاسفة .
طبعاً ، ليس الأمر في هذه السهولة . لكنه مغر للتجربة حين يجد
الباحث نفسه أمام فيلسوف كان له تأثير كبير في الكثيرين من الأدباء
الأجانب .

٣ - الأفكار الاخلاقية وتيارات الاحساس

مع الأفكار الأخلاقية ، نلج ميداناً كان دائم الامتراج مع ميدان الأدب . فالأدباء لم ينتظروا حتى يعرفوا كلمة «التزام» حتى يلتزموا في كتاباتهم . وكثير من المؤلفات كان مخصصاً للفكر الاجتماعي لدى بلزاك أو للأفكار التربوية لدى لامنيه أو لفن الرواية لدى الأول أو للغنائية لدى الثاني .

من هنا أن على الأدب المقارن أن يلاحق ، خلال العصور ، والحدود ، التيارات العاطفية والمبادئ الأخلاقية . وهذه الأخيرة ، تنتمي غالباً الى تاريخ الأفكار ، فيما تلك تظهر في اقامة مقارنات في التسلسل أو في تأثير الحوار . ومن هنا أن المقارنين كثيراً ما ترددوا في ولوج منطقة إلا في فكرة شمولية لا فردية .

وفي كل عصر ، ثمة فرد يختصر معطياته ، ويحدد ، فيه ، مثال الاخلاقية لدى جيل أو طبقة . لكن هذا المثال الأعلى ، هو تارة أهلي ، وطوراً مستعار من أمة مجاورة فيها بعض التفوق . وأحياناً يقوم البطل الوطني في مقابل تحديد نده الأجنبي . وهنا عمق الأدب المقارن ، إذ كيف يمكن تحديد هذه النماذج البشرية ، وتأمين انتشارها ، لولا المسرح والروايات والرحلات ؟ بعضهم يحمل ، عميقاً ، الطابع الوطني ، ولا يمكن نقله ، عميقاً ، الى بيئة وطن آخر . ودراسهم تؤدي الى تفنيد الشعوب واحداها ازاء الآخر ، وهو ما

يتم به اليوم باحثون كثيرون. وهو ما سراه في الفصل الآتي.

٤ - مؤلفات بول هازار

بدلاً من التوقف عند نماذج وأمثلة متفرقة عن هذه المسائل المختلفة، نتوقف عند آثار متكاملة جمعت، لوحدها، جميع أبحاث الأدب المقارن، هي آثار بول هازار (١٨٧٨ - ١٩٤٤). وهي، وإن لم تعالج المسائل جميعها. يبقى طابعها التأليبي شاملاً. ولدى مراجعة هذه الآثار، نكتشف المنابع والامكانيات في تاريخ الآداب الأوروبي، وهذا هو هدف الأدب المقارن وتبريره.

في ذكرى بول هازار، أصدرت «مجلة الأدب المقارن» عدداً خاصاً عام ١٩٤٦، جمعت فيه جدولاً (غير مكتمل طبعا)، لاكثر من خمسمائة عنوان كتاب وبحث ومقال وتلخيص، تشهد على العمل الجبار الذي لم يقطعه سوى الموت. ويحذر التوقف دائماً عند اثنين من هذه المؤلفات: «أزمة الوعي الأوروبي» (١٩٣٥). و«الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر» (١٩٤٦) وهما جمعاً الحياة الروحية في أوروبا طوال أكثر من قرن، ويظهران ما يمكن لتورخ الأفكار أن يحاوله وينجح، حين يجمع الطرائق المقارنة في معناها الأدبي.

في الكتاب الأول، درس بول هازار أولاً «التغيرات السيكولوجية الكبرى» التي حملت معاصري راسين. منذ حوالي

١٦٨٠ ، إلى الاتجاه نحو فونتنيل تمهيداً ليتجه ابناؤهم نحو فولتير. وهو هذا ، العبور « من الثابت إلى المتحرك » بفضل الرحلات الواقعية أو الوهمية ، من « القديم إلى الحديث » بفضل الجدال الدائم بينهما ، من « الجنوب إلى الشمال » بفضل الظهور ، على المسرح الأوروبي ، للقم الفلسفية والادبية ذات الأصل الانكليزي والألماني والهولندي . وجميع هذه التغييرات توجه الأفكار نحو انكلترا حيث سانت افرمون ، أو نحو هولندا ، بلاد المذاهب ، حيث الأفكار المتضاربة . ومنذ تلك الفترة ، جسد بيار بايل في حياته كما في مؤلفاته ، انكار الثوابت النظامية ، ونكران «المهادنة» الكلاسيكية .

وتقوم الثورة الرافضة ، « ضد المعتقدات التقليدية » ، باسم المنطق ، والمفهوم هنا يختلف - ، يقيمها منكرو الخوارق (بايل) والمذنبات ، فونتنيل والعرافات) . والمثولون المتشردون (كما الخطيب ريتشارد سايمون) . وفي مقابل هؤلاء ، ثمة لايتز ويوسويه المأخوذان بالتناغم والشمولية إنما العاجزان عن جمع التيارات المسيحية المتشردة ، لا يظهران غانمين ، بل منكسرين يتألمان .

هكذا ظهرت ، في أواخر القرن السابع عشر ، هذه التقويضات التي أتبعها القرن الثامن عشر . ومعها ، قامت ظواهر عديدة : تجريبية لوك ، التأليية الإيطالية المشتولة في انكلترا ، قيام الماسونية (في لندن عام ١٧١٧ وفي فرنسا عام ١٧٢٥) ، قيام عبداً الحق الطبيعي

(غروتوس وسبينوزا ، لوك ، فيلون ، غرافينا) . ومبدأ الأخلاق الاجتماعية (بايل ، ماندفيل) . وعناصر كثيرة تؤلف مثلاً نموذجياً جديداً . وكان من فونتيل وشافيسوري ان يصورا «السعادة على الأرض» . فالأول يشرح لما ركيزته في «ابحاث في تعددية الأكوان» ، الجملات العقلانية لعلم رائده نيوتن . اذن ، عنده ، يحتل العالم الدرجة الأولى في الترتيب الفكري ، إذ نهضة التطور والسعادة ، تثير تردد الكثيرين ممن يرفضون حالة العلم . وهذه الانسانية الغربية المتحررة تدريجياً من بقاياها العقيدية ، والمحرومة ممن يدافع عن هذه ، كان لا بدّ من نماذج جديدة ، فاذا : آديسون وستيل ، في انكلترا ، واذا في فرنسا شخصية الفيلسوف (قبل ١٧١٥) .

هذه الفترة العقلانية والرافضة ، والتي تبدو كأنها بدون شعر ، بحثت خارج إطار بوالو عن صور خيالاتها وطموحاتها . من هنا . الشوق الذي نشأ لقصص الجن والرحلات الخيالية وزمان ألف ليلة وليلة ومذكرات غرامونت ، والأوبرا الايطالية والدموع لدى مشاهدة مسرحية مؤثرة . وهكذا ، فسيكولوجيا الوحدة عند لوك ، والعلم الجديد عند فيكو ، وصوفية مدام غويون وانطوانيت بورينيون ، جميعها أعطت الى هذا الفيض من العاطفة تفسيراً في العمق : انها جميعها ، وان على أصعدة مختلفة ، تثير ذوق اللاعقلي ، وتقبلاً لكل غامض ، في الفترة التي عرفت إشعاع العقل والوضوح .

في هذه اللحظة الروحية من الغرب ، طوال ٣٥ عاماً حاسماً (١٦٨٠ - ١٧١٥). كان كل أمر تعاونياً ، ولم ترد الصدق على هذا التعاون إلا أضواء خفيفة لا تنير التأثيرات كما هو مطلوب . وهكذا ، أمام وضعهم في عمق تاريخ الوعي الأوروبي ، يبدو بوسويه وفينلون ، ولوك وآديسون ، ولايتر وغوتفريد أرنولد ، أكثر فهماً مما هم عليه ، معزولين في تواريخ الآداب الوطنية أو في كتب الفلسفة . ومن هنا ، الفهم الأكثر لانهايار الكلاسيكية في عصر لم يعد خلاصة حياة روحية بل مادية تفرق في العقلانيات . لذلك تبعثت الأفكار الخلقية إزاء تشرذم الثوابت الدينية والفلسفية ، وإزاء تغير الذوق والتحمس : من هنا ، في انكلترا كما في فرنسا ، البحث عن نموذج جديد انساني . وهكذا ليس من مسألة إلا ولها في كتب هازار أجوبة ، والحواب ليس معزولاً ، بجزءاً أو مجزوءاً ، بل مرتبط بكل متكامل .

في معالجته للقرن الثامن عشر ، يدخل هازار إلى مجالات يظنها للقارئ مفتوحة . صحيح أن كتاب «الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر» لا يكشف أكثر مما في «الوعي الأوروبي» ، لكن المسيرة التي كان خطاها حتى يومئذ مؤرخو الأدب ، يعيدها هازار في صورة أشمل . وهذا الشمول ، يوضح ، أكثر ، تفسير الوقائع لمن كان توقف عند معرفتها فقط .

هل في الأمر «دفاع عن المسيحية» ؟ إن هازار يبدي الطابع

الشامل للنقد، وملاحقة السعادة، ولسكرة العقل، بعد ضياع.
قبله، في هذه التصوثة. ومن التيارات المناهضة للمسيحية: فولتير،
ليسينغ، جينوفيزي، أرغنتز، فون هاغردون، فيري، وجميعهم
كتبوا عن سعادة خارج المسيحية.

في «مدينة الرجال» التي كانت تقام، ثمّة - في إيطاليا كما في
فرنسا، وفي ألمانيا كما في انكلترا - مبدأ التأليية، وفضول العلوم في
الطبيعة، والحق الطبيعي، وتحديد أخلاقية علمانية واجتماعية،
وتمجيد القانون الانكليزي. وانتشرت قراءة «الموسوعة»، وعادت
نكهة الكلاسيكية ووجد الكثيرون في الحرية، توجيهاً للمعادن
والتقاليد. وإذا ليس من مجال لتقديم أوروبا موحدة، إذ حدود
بلدانها لا تتأقلم في المناطق الجغرافية الجامدة، ففي كل أوروبا.
«معسكرات» أدبية تهاجم وتدافع عن الموسيقى الإيطالية وعن
تأليية لوك، وأولوية الكلاسيكيين الفرنسيين. من هنا، ومقابل
البطل والبطولة، ثمّة موتسكيو وصامويل جونسون، وفولتير وغولد
سميث، و«الموسوعة» و«دنيز دا كروز أي سيلفا».

وكتب هازار الصادرة بعد وفاته، تجدد رؤيتنا للقرن الثامن
عشر، في إقامة مقارنات، واستخراج التأثيرات المتبادلة بين الآداب
الغربية الكبرى. وهازار يعترف، في عمق التفلسف، ببدور تفكك
يضيئ عليها مؤرخ الأدب في وضوح. منها: سوء التفاهم في مفهوم
الطبيعة، انكار أهمية العاطفة التي ظهرت لدى «مانون ليسكو»

ودورثه ، مروراً بـ «بامبلا» ، التناقضات في مفهوم التأليية (لدى بولينغبروك ، ويوب ، وفولتير ، وليسنج) . وهذه الثلاثة العناصر ، أظهرها بول هازار فاعلة في أوروبا تفتش عن نفسها وهي تتشردم . من هنا ، ولكي يكون «قلق الفكر» هو المخلص ، يجب ، لتأكيد ، كما فعل بول هازار في خلاصة كتابه ، التمسك بتفاوت كبير مفهوم لدى الذي يواجه كل هذا التناقض في المبادئ . وحتى لو لم نعلم تلك الثقة بالنتائج الأكيدة ، فكتاب هازار يعطي صورة التعددية الأوروبية في عاطفة متطورة ، وتعيد الحياة إلى عصر قزمه التاريخ الادبي إلى مجموعة شعارات مينة .

*

خلاصة : ان جيلاً من الباحثين وعى الأدب المقارن في كتب بول هازار . فقليلة هي الكتب التي ، كما كتب ، فيها الشمول والأمانة الموضوعية . فالتاريخ الأدبي للأفكار والعواطف ، الدقيق لدى التصوثة عليه في بلد واحد ، يصبح حذراً في شدة ، على الصعيد الدولي . ولضم جميع العوامل والأسماء ، وضبطها ، يلزم وضوح فكر ووسع اعلامي شامل . ومثال بول هازار ، يؤكد المكانية قيام «أدب عام» ، وضرورته .

ودلت عناوين كثيرة لبعض الكتب ، أن دراسات كثيرة مشابهة
تلقت الكثيرين من العلماء الفرنسيين والاجانب . وهذا ليس عمل
مبتدئ بل عالم جلود يستطيع أن يقدم خلاصات واستنتاجات .
أما المواضيع ، فكثيرة : الرمزية ، مناهضة الثورة ،
الاشتراكية ، وفي أوروبا كلها . حيث كان لهذه المواضيع ، وغيرها .
أن تطلع أدباء تفصلهم اللغة ويوحدتهم مبدأ سياسي أو مثال أدبي
أعلى .

وأما تمييز الانحرافات الوطنية للعناصر المشتركة في جيل أوروبي
واحد . ثم طبع التأثيرات بين أدب وآخر ، فالأدب المقارن موجود
لهذه الأمور ، وربما له ، وحده ، أن يتولى تحليلها استنتاجاً ومقارنة .

الفصل الثامن

الأجنبي كما يراه الفرنسي

وجهة نظر جديدة : الغوص في دراسة التأثيرات ، غالباً ما يكون محيياً للآمال . فهو حين يضيئ ، لدى أحد الكتاب ، على « اتجاهات غريبة » ، لا شك أنه يساهم في تعريف هذا الكاتب ، مصادر وتأثيراً . بينما حين يدعي الدارسون ، كما لويس رينو ، إيجاد تأثير بلد على بلد آخر ، يفرق الدارس فوراً في المتاهات والثروة . فالباحث الموضوعي . يعرف أن أمة لا يمكنها أن تنقلص إلى وحدة : فلماذا اعتبار ألمانيا ١٨١٥ غوته شائخاً ، لا أوهلاند ، أو بروسيا لا أفيار ، وروح الاصلاح لا الكثلركة ؟ فرنسا ١٨٤٨ ، هي لديمقراطية ، لكنها ، أيضاً ، الطبقة النبيلة ، انها فيكتور هوغو ، صحيح ، لكنها ، أيضاً ، تيوفيل غوتيه ، وهي رينان مفكراً في « مستقبل العلوم » ، كما هي مونتالانبير . وهكذا تتعدد الامثلة والشواهد ، التي تدوب ، في النهاية ، في الهيكلية الكبرى التي للأمة . لكن ثمة أمراً واقعاً آخر : كل فرد ، وكل جماعة ، بل كل بلد .

يختصر النظرة إلى البلد الآخر، حيث لا يبقى إلا مجرد خطوط كبرى
لمأحة... فليس ثمة ألمانيا. بل ألمانيا ميشليه، وألمانيا الفلاسفة
وألمانيا الفرنسيين. وكلما اتسعت الجماعة، ازداد امكان اختصار
الخطوط المكوّنة عن البلد الآخر، وصارت النظرة كاريكاتورية
لافتة.

وفي فرنسا الثلاثينات، قام تجديد فعلي في الأدب المقارن، فاتحاً
خطاً جديداً في البحث، ومغيراً النظرة تلك، إلى أمور كثيرة، فما
عاد الباحث يتبع تأثيرات عامة ايهامية، ولا عاد يسعى إلى فهم
أعمق إلى كيف - في الضمائر الفردية والجماعية - تعيش كبرى
الأساطير الوطنية. أما الباحثون الذين ظلوا على هذا النهج القديم،
فقاتهم الكثير من الأمور التي لم يشبعوها درساً.

١ - دراسات جزئية

قبل ظهور الأدب المقارن، قام دارسون كثيرون عابحوا النظرة
إلى بلد من خلال أديب واحد. فهذا رو، مثلاً، درس «تين
وانكلترا» (١٩٢٣)، فعالج، مع التأثيرات، الحالة الانكليزية لدى
تين. وفي الفصل الأخير، برهن على ديمومة افكار تين في فرنسا.
فكتاب كهذا، مساهمة كبرى في تاريخ انكلترا كما رآها الفرنسيون منذ
زمن الملكة فكتوريا.

ومن جهته، لكي يهزسوه المعاملة الألمانية، يحاول لويس رينو

في دراسته «التأثير الألماني في فرنسا (١٩٢٢)» ، أن يقابل النظرة التي
للفرنسيين عن ألمانيا ، بالواقع الألماني . من هنا ، التقصير في جعل
كتابه ذا موضوعية علمية ، وذا تاريخ علمي للاكتشافات الفرنسية
وطموحاتها .

الى هذا ، ظهرت مقالات عديدة وكتب معدودة حول مصير
أديب اجنبي في أدب وطني ، كما ، مثلاً ، كتاب ليثرس عام
١٩٣١ ، حول : «أسبانيا والاسبان في آثار بلزاك» . انما ، حتى
١٩٢٧ ، لم تكن هذه الكتب . ولا تلك الدراسات ، موضوع أعمال
متكاملة ، فبقيت ، جميعها ، دراسات جزئية .

٢ - دراسات عامة

عامته (أي ١٩٢٧) . أصدر جورج أسكولي «بريطانيا العظمى
إزاء الرأي الفرنسي منذ حرب المائة عام حتى نهاية القرن السادس
عشر» ، وهي كانت مقدمة موفقة لأطروحة التي أصدرها عام
١٩٣٠ : «بريطانيا العظمى إزاء الرأي الفرنسي في القرن السابع
عشر» . وكان لهذين الكتابين أن يفتتحا سلسلة أبحاث جديدة فعلاً
حول تاريخ الأساطير الوطنية . ولكن ، هل هذا ، فعلاً ، من الأدب
المقارن؟ ان أبحاث أسكولي ، تاريخية أكثر منها أدبية . وهي ، الى ما
فيها من استشهادات ومراجع ومصادر ، تظهر كيف أن مواضيع
لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . عرفت أثراً في «أحداث

انكلترا ، ولا تترك أي حادثة في الظل ، لرحالة ، أو أية ترجمة لأثر لاهوتي أو سياسي ، انما لم يذكر المؤلف . لأسباب ربما شخصية ، أي مرجع فرنسي كبير ، فيه لانكلترا أثر ملموس . ولكن الأمر اختلف ، حكماً ، لو كان درس عصر برينفو وفولتير ومونتسكيو ومعاصريهم . ففي القرن السابع عشر . ثمة موقف فاصل : المعرفة العميقة بالأحداث والأماكن ، والجهل البالغ للنقل الأدبي . ويبدو أن ثمة ، هنا ، بعض التطاول لكون الكتاب أقرب الى التاريخ منه الى التاريخ الأدبي ، ويظهر هذا التطاول في كلمة « الرأي » وهي من مفردات المؤرخ . وفي فترة معينة ، كان الدبلوماسيون الفرنسيون يكوّنون عن انكلترا أو روسيا نظرة هي الكانت تقود سياستهم . وللصحافة هنا دور كبير في التشديد على معائب بلد أو حسناته ، لكن مهمة المقارن ، تبدأ مع النقل الأدبي الذي توحى به الأضواء وتصرفات الدبلوماسيين والصحافيين . وحين درس رنيه ريمون والولايات المتحدة ازاء الرأي الفرنسي ، (١٨١٥ - ١٨٥٢) . كان في دور المؤرخ البحث ، فيما أسكولي ، مؤرخ الأدب ، لم يكن له أن يراجع كل تلك الآثار التي لا تحمل القيمة والصبغة الأدبيتين . من هنا ، أن من مصلحة التاريخ والأدب المقارن ، اقتسام العمل (راجع كتاب تمرينات ، حول « التمثيلات الجماعية للشعوب ») . ومن هنا أن كتاب أسكولي ، وإن له قيمة تاريخية ، يساعد سلبياً على تحديد ميدان العمل المقارن .

بريطانيا العظيمة كما يراها الأدباء الفرنسيون : مع القرن الثامن عشر. بدأ. فعليا ، الاكتشاف الأدبي لانكلترا في فرنسا التي ذهب معظم أدبياتها إلى انكلترا. وتعمسوا لمؤسساتها وحدائقها وشكسبيرها. وظهرت شخصيات بريطانية في الروايات والمسرحيات الفرنسية ، مثل : كليفلاند. وميلورد ادوارد ، وسواهما. وتتبع غابريال بونوبداية هذا « الغزو » الأدبي من ١٧١٣ حتى ١٧٣٤ . من ١٧٣٤ حتى ١٨١٥ . لم يظهر كتاب واحد يجمع ظاهرة التأثيرات الانكليزية في الأدب الفرنسي . إلا لمحات عابرة حول تاريخ شكسبير أو أوسيان في فرنسا أو حول المصادر الانكليزية لدى شاتوبريان أو مدام دوستال . من هنا ، ضرورة قيام عمل يكمل عمل بونو.

ويعتبر بيار ربول (في كتابه « الهالة الانكليزية في الأدب الفرنسي خلال عودة الملكية الى الحكم » - ١٩٦٢) ، ان بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ ، نما في فرنسا ما يمكن ان يسمى « الهالة الانكليزية » التي تركت بصماتها ، حتى اليوم ، على صفحات كثيرة ، فيها الخبث والواقعية والاحترام والحرية والامبريالية .

ويرى ربول ان بين ١٨٣٠ و ١٩١٤ . انفتحت فجوة جديدة في العلاقات بين الصورة الفرنسية في انكلترا . طبعا ، ثمة ملاحظات مهمة في كتابات بيار جوردا حول « المجلوبات » في الأدب ، كما في

كنايات مماثلة حول أي أديب فرنسي. انما هذا لا يكفي. ويلزم بعد. أن تظهر كتب أخرى أعم وأشمل، تتبّع، من ١٨٣٠ حتى للحرب العالمية الأولى، سير «الهالة» التي بدأ باظهارها بيار ربول. أخيراً، حاول هذا الأخير- في بحثه لما بين ١٩١٤ و ١٩٤٠. أن يصف المآل المعاصر والتحويلات الموروثة من القرن التاسع عشر. قسمة وارثون ومحددون، أبرزهم بول بورجيه، وأبيل هرمان. وجاك إميل بلاكنش، وأندريه موروا، وفاليري لاريو، وبول موران. وسواهم. فما هو قدر الشعر، ومقدار الحقيقة في تمثيلهم للواقع الانكليزي، ولماذا شددوا على مفهوم دون سواه، ولاحقوا صعوبة دون سواها، وما الدور الذي لعبوه في تحويل الاحاسيس الفرنسية؟ عن كل هذا، يجب كتاب «أثر بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية» (١٩١٤ - ١٩٤٠) الصادر عام ١٩٥٤.

ألمانيا الفرنسية: اكتشاف ألمانيا تم في فرنسا متأخراً عن اكتشاف انكلترا. فقبل ١٧٥٠. كان الفرنسيون يجهلون الأدب الألماني الذي كان حديث العهد. وكيف لهم أن يعرفوا، يومها، بأن ألمانية منقسمة الى مئات الممالك والدوقيات والامارات؟ بعدها. كان من غسرن. ثم «ورثر». ان يشعلا في فرنسا الاحاسيس الألمانية، وكان من مدام دو ستال أن تعرّف الفرنسيين بألمانيا. وان يكون دورها مصيرياً، وتأثيرها ممتداً مدى عدة أجيال. وأفضل ما صدر في

هذا المجال ، كتاب جان ماري كاربه «الأدباء الفرنسيون والوهم الألماني» (١٩٤٧).

منذ مدام دو ستال ، تفاوتت النظرة الى ألمانيا . فكتابها . في ١٨١٤ ، يصف شهرة للأدب الذي أشعله «ويمار» غوته . وقيمت الرومنطيقية الوطنية في ١٨١٣ بجهولة من قرائها . والرومنطيقيون الفرنسيون - وجلهم لا يعرف الألمانية - جهلوا هم أيضاً . فألمانياهم هي شيلر وهوفمان قبل أي شيء آخر ، وهي بلاد الحرية الدرامية والخيال الأوسع .

ولم يجد فيها فكور كوزان . إلا «حليفة ضدّ المادية» . حين أرخى على هيفل وشاحا فرنسيا . وكان الأحرار يؤمنون ببروسيا حرة . والمعارضون بالمعارضة ، والسان سيمونيون يقدرّون تنظيمها . وهكذا . من جميع الجوانب ، كانت ألمانيا بلادا على صورة أحلام الجميع وخاصة أحلام الفرنسيين . وعملية «الرين الألماني» عام ١٨٤٠ ، تثير بعض القلق . وهذا كينيه يطلق صرخة إنذار . ولكن . كما في ١٨٣٢ . لم يكن هذا الفرنسي العارف بألمانيا . مسموعا في فرنسا ، هو الذي عاش فيها عشر سنوات . وزوجته ألمانية . وظل الفرنسيون يجهلون جارتهم ولا يرون فيها . إلا . كما رينان ، أفضل معلم للتاريخ .

لكنّ عام ١٨٤٠ ، كان انذاراً ، ليحيئ عام ١٨٧٠ صدمة

يقظة ، اراد الكثيرون من الأدباء الفرنسيين تسجيلها في كتاباتهم .
لكن اكبرهم وجدوا ، فوراً ، حجة لولعهم بألمانيا ، إذ رأوا فيها
شقين : ألمانيا العلم وفاغز وألمانيا المنتظم البساركي ، أي ألمانيا نيتشه
وألمانيا الحكم العسكري ... ومع اقتراب الحرب ، في السنوات
الأولى من القرن العشرين ، زخر الأدب الفرنسي بالتأثير الألماني .
وبرزت قضية الألزاس واللورين ، وقام متحمسون فرنسيون ، أبرزهم
جوريس ، يؤكدون أن الاشتراكية الديمقراطية الألمانية ستمنع
الحرب .

وصارت الأقلام تتلقى تدريجياً من الأدب الى السياسة ، مع
بعض سوء تفاهم : وكان الليبراليون والمعارضون الفرنسيون أعلنوا ، في
سادوفا . انتصار بروسيا المعتبرة ليبرالية ، على النمسا «الرجعية» .

وكتاب جان ماري كاريه يتبع ، حتى ١٩٤٠ . هذه
المداخلات السياسية والأدبية ، بين العاطفة والعقل ، في تفتح النظرة
للتسلسل الى ألمانيا . ودائماً الاستتاج نفسه : قليلون من الأدباء
حاولوا أن يفهموا ألمانيا ويعرفوها في ذواتهم . وعام ١٩٣٦ . كما عام
١٨٤٠ . ظلوا يرونها أو يتخيلونها أو يعتقدونها حسب الآراء المسبقة
الموروثة ، والنظرة الايديولوجية ، في تبرير لا يطلع إلا صوراً ذات
شغف : الطيب الفاضل ، والبطل النازي ، والموسيقي والأوروبي .
جميع الاشخاص كانوا ذات صبغة ألمانية ، ولم يكن بينهم واحد

هو الألماني . مع أنهم كانوا يتمثلون بالألماني رينان أو ألماني رومان رولان ، أو ألماني جول رومان .

على أن جان ماري كاربه يعترف هو نفسه أن كتابه « بحث سريع » . لم يكملها ، في ما بعد ، إلا كتاب موشو وألمانيا والأدب الفرنسي » (١٩٥٣) . خاصة للفترة بين مدام دو ستال وهنري هاين . وكذلك كلود ديجون ، درس « الأزمة الألمانية في الفكر الفرنسي » من ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية الأولى (١٩٥٩) . وثمة ، إذن ، مجال لأعمال أخرى ، بعد . كثيرة ، حول الفترة ١٨٣٥ - ١٨٧٠ ، و ١٩١٨ - ١٩٤٠ .

بلدان أخرى : منذ قرنين ، تبوأَت ألمانيا وانكلترا المرتبة الأولى في الأدب الفرنسي كما في الاهتمامات الفرنسية السياسية . بديهي إذن ، أن تتجه إليها أولاً أنظار المقارنين . وكذلك استأثرت إيطاليا ببضع دراسات . من هنا أهمية محاولة أوربان منغين « إيطاليا الرومنطيقين » - ١٩٠٢ . وإذا ، من كورناي إلى مونترلان ، ومن لوساج إلى مالرو ، لم تغب النفحة الإسبانية عن المسرح الفرنسي والرواية الفرنسية ، فوحدها « صورة أسبانيا في فرنسا بين ١٨٠٠ و ١٨٥٠ » درسها هو فان في كتابه « أسبانيا الرومنطيقية » عام ١٩٦١ .

وهذه الدراسة ، محاطة بأخرى مكتملة ، أبرزها دراسة العالم الأميركي رويار الذي درس « التركية » في فرنسا بين القرنين السادس

عشر والسابع عشر (١٥٢٠ - ١٦٦٠) ، ودراسة غمي عن الأثر الصيني في فرنسا قبل فولتير وبعده . وكذلك لورثوليري أبرز «الوهم الروسي في فرنسا خلال القرن الثامن عشر» (١٩٥١) ، ثم ميشال كادو ، وصف «رحلة كوستين في نهاية حرب كريميه» - «صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية» (١٩٦٧) . وسيمون جون ، درس عام ١٩٦٤ ، «النماذج الأميركية في الرواية والمسرح الفرنسيين» من توماس غريندورج الى بارنابوث . وثمة ، بعد ، من يجب أن يحاول البحث في هيولات روسيا الفرنسية وأميركا الفرنسية ، من الكونتيس دو سيغور إلى اندريه جيد ، ومن ساندرار إلى ميشال بوتور .

ميدان مستقبلي : ربما للأدب المقارن أن يفيد التاريخ الأدبي ، أكثر ما يفيده ، في اتجاهات كالتي ذكرنا أعلاه ، حيث المجالات ، بعد ، مفتوحة . فالمجال جديد ولم يتم بعد اكتشاف كل أسراره . فالتأثيرات ، هي - غالباً - خفية ، والتشابهات كثيرة ، بينما ، في الإمكان ، مع بعض من المنهجية ، وصف الصورة أو صور البلاد التي تفعل في بلاد أخرى خلال فترة من الزمن . وتتغذى هذه الدراسة من وقائع أدبية منظمة ، في سردتها دقة وحذر : هل عندما يتأثر الأديب ، يكون ذلك عن اقتناع أم تهكم ، أم هما الاثنان معاً ؟ ومن الدقة أيضاً ، تكوين هذا التأثير في بال الفرد أو الجماعة . وغالباً ما تكون نقطة الانطلاق ، وليدة الصدفة ، غريبة عن الأدب ، إلا

حين تكون تابعة من كتاب كما «ألمانيا» مدام دوستال ، أو تين في انكلترا . لكن القاعدة ثابتة : في نصوص تكفي قراءتها ومقارنتها ، لايجاد النقاط المشتركة والتفاصيل الدقيقة .

تحليل الأوهام أو الهالات الاجنبية في فرنسا ، بدأ ضعيفاً ، وكذلك تحليل تأثير فرنسا في الخارج ، أو تأثير أي بلد في أي بلد آخر . ومن أهم ما صدر في هذا المجال ، أطروحة ماراندون «تأثير فرنسا في الوعي الانكليزي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر» ، وكتابات جوس «سويسرا في الأدب الفرنسي عبر العصور» (١٩٥٦) ، وكذلك كتابات لوهرر وستيفن حول التأثيرات الألمانية .

والقوي ، بعد كل هذا ، أن يقوم المقارنون الأميركيون والبريطانيون والايطاليون وسواهم ، فيسهموا مع أندادهم الفرنسيين ، ويعملوا لا على أدب واحد ، بل على مسائل آداب عديدة ، يكون حلها نهجاً للشعوب كي تتعارف اكثر في تعرفها إلى مصادر تأثيراتها وتأثيراتها .

خلاصة

علم مستقبلي : ما زال الأدب المقارن حديث العهد ، والمقارنون لم يتفوقوا ، بعد ، على تحديد أبعاده واتجاهاته ، الى الفروقات في ما بينهم . وتختلف ميولهم من بلد إلى آخر : فالألمان مثلاً ، بين عامي ١٨٨٠ و ١٩١٠ ، كانوا يهتمون بالبحث عن المصادر وتاريخ المواضيع . أما الدراسة المقارنة حول الأنواع الأدبية ، فلا تثير ، بعد ، حماساً : فبعد ميغرون ، لم يزل بول فان تينغيم وحده المهتم لها والمتابع لها . والواقع أن المدرسة الفرنسية المقارنة اهتمت دائماً بتأثير الأدباء الذين خارج فرنسا : غوته (بالدنشبرغر ، كاريه) ، شكسبير (فان تينغيم ، ليرونديل) شيلي (بير) ، مونتاني (ديديان) ، روسو (روديه ، فوازان) . وكانت دراساتهم وافية . وحوالي ١٩٥٠ ، وداخل التيار المقارن الفرنسي ، انتقل الاهتمام نحو الأمم الأخرى . وهو هذا ما وجّه «كاريه» طلابه اليه . فلماذا هذا التحول؟ ..

أسباب التحول : أهمها التبدل في النظرة إلى التاريخ الأدبي . فؤرخو الأدب ، وهم وارثو الحتمية التينية ، حاولوا طويلاً ، من

خلال جنسهم وبيئتهم وزمانهم ، أن يضعوا الآثار وأصحابها في مرتبة يعتقدونها الأصح ، وشرحونها . ولكن قيمتهم اليوم ، غير مدهشة ، إذا اعتبرنا فترتهم وأبحاثهم وتنقيحاتهم . صحيح أن أسلافهم لم يكونوا أفضل ، لكن وفرة الوثائق كانت تغطي على فكرهم العميق مما كان يشكل على أتباعهم : فوضع المصادر كان يمحو ، أحياناً ، أصالة الأديب . وما إلا بعد اجحاف بيغي بحق لانسون ، حتى وصى النقد مهمته . والمؤرخ الأدبي لعام ١٩٦٩ ، صار يحاول الغوص في جمالية الأديب الذي يدرسه ، دون الغوص في شرحه على ضوء أسلافه ومحيطه . والمقارن ، صار يتتبعه الى التأثيرات ، وصارت سيرة الأديب تهمة أكثر من الأثر نفسه ، حتى بات يتقبل بحثاً عن كورناي يبدأ هكذا : « بنعمة مهمة ، جاءت حياة ييار كورناي شبه مجهولة » .

الى هذا السبب المهم في التاريخ الأدبي ، يمكننا إضافة أسباب خاصة بالأدب المقارن نفسه ، وبعضها واضح من غير ميدان ، ومستنفذ . بينا ميادين أخرى ، كما ، مثلاً ، تمثيل فرنسا لايطاليا أو أسبانيا . وكذلك تمثيلها لانكلترا بين ١٧٣٤ و ١٨١٥ ، وبين ١٨٣٠ و ١٩١٤ . وكذلك تمثيلها لألمانيا بين ١٨٣٥ و ١٨٧٠ ، ولأميركا منذ لاريو ، ولروسيا بعد حرب كرميه .

تطلعات مستقبلية : وهي التي تغوي الدارسين . وفيها ميادين كثيرة . فهذا اتيامبل يدعو إلى الانتقال من « الأدب المقارن إلى الفن

الشعري المقارن»، واسكاريت الى «سوسولوجيا الأدب» (١).
وهكذا تتنوع الاتجاهات، لا من بلد الى آخر، بل حتى داخل
المقارنة الفرنسية نفسها، وهي التي تجتاز اليوم أزمة نمو، عاجلها
اتيامل واضعاً لها حلولاً «من ضمن تجربته استاذاً وكاتباً».

أمر أكيد: لم يكمل الأدب المقارن مهمته بعد، سواء انقاد في
التيارات الجديدة، أم اهتم بمعالجة فجوات تياراته الماضية.
وطموحاته، في فرنسا، على الأقل، لها مبرراتها الجامعية: إذ الأهمية
المعطاة له في المناهج الجامعية، تكتسبه كل عام طلاباً جديداً، اذن
باحثين جديداً. لكن هذه الناحية غير كافية لتبرير ثقة فيه، لها أسسها
الخلقية والفكرية. فالكل يعلم أن التبادلات الثقافية، هي أحد
طموحات الانسانية. والعمل المقارن، في تسجيله لتاريخ العلاقات
الأدبية الدولية، يرهن أن أي أدب لم يمكنه الانعزال دون أن
يضعف، وأن أروع النجاحات الأدبية الوطنية، هي التي لها تأثيرات
خارجية، سواء ظهرت أم ذابت فيها. وفي الوقت نفسه، يساعد
الأدب المقارن كل شعب، ان يتبع في ذاته مولد تلك الأوهام التي
يتخذها مثلاً، وهي، هنا، أمثلة في الصفاء والتبعية، تعادل ما
تعادله أمثولات التاريخ: أكثرها مجهول لكنه أكيد. يبقى لكل فرد
أو لكل شعب، أن يعتبرها أو يرفضها...

(١) راجع كتاب اسكاريت المذكور، لدى منشورات عويدات، في سلسلة «زدني
علماء».

تحسينات مطلوبة : بعد اجتياز المقارنين درجة « الترتيب المهدور » ، وهو كان أكثر المطلوب الحاحاً ، تكونت « الشركة الدولية للأدب المقارن » ، من بلدان كثيرة أهمها : ألمانيا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة . وهذه التكتلات ، في تجمعها ودراستها مسائل ذات منفعة عامة ، تسهل تعاوناً كبيراً في ما بين الباحثين ، كما حدث في المشروع الضخم : « القاموس الدولي للمفردات الأدبية » الذي تولاه روبرت اسكاريت موجهاً ومديراً لأعماله .

المطلوب ، بعد ، أيضاً ، هو إقامة تقسيم موزع للعمل ، لإمكان مجابهة مستجدات الميادين الجديدة غير المدروسة بعد . وهذا ما يحاوله مونشو وديجون ولورثولاري وكادو .

هكذا ، منذ ظهور الأدب المقارن ، بدأت تتكامل « مطلوباته » .

وهكذا ، اظهرنا ، في الفصول التي ضمها هذا الكتاب ، ما تم وما يجب التشجيع ، بعد ، على إتمامه .

فالأدب المقارن ، اليوم ، يملك طاقة زاحمة على توليد أبحاث مستقبلية ، ما زالت مرهونة بقدره الباحثين على نفس ، في العمل ، غير قصير .

فَمَنْ لَهَا ١٩٩٤

فهرست

٥	مقدمة المؤلف للطبعة العربية
٧	مقدمة
١١	الفصل الأول : تاريخ وجدور
١٥	الفصل الثاني : الهدف والطريقة
١٥	حده الباحث المقارن
١٧	ميدان الأدب المقارن
٣٠	الفصل الثالث : عناصر الكوزمبوليتية الادبية
٣٠	الكتب
٣٦	الأدباء
٤٩	الفصل الرابع : الأنواع ، المواضيع ، الحالات
٤٩	الأنواع
٥٥	المواضيع
١٤١	

٦٥	الفصل الخامس : بين التأثيرات والنجاح
٦٥	أدباء فرنسيون في الخارج
٧١	أدباء أجنبى في فرنسا
٧٨	التأثيرات بين الآداب الأجنبية
٧٩	نمذجات لاقتان : شكسبير وفرن
٨٦	التأثيرات المتبادلة
٩٠	الفصل السادس : المنابع
٩٣	المجاهات أجنبية في الأدب الفرنسي
٩٨	المجاهات فرنسية في الآداب الأجنبية
١٠٣	منابع أجنبية لأدباء أجنبى
١٠٤	نمذج لافى : بلزك
١٠٩	الفصل السابع : التيارات الأوروبية الكبرى
١١٢	المبادئ والأفكار الأدبية
١١٥	الأفكار الدينية والفلسفية
١١٧	الأفكار الأخلاقية وتيارات الاحساس
١١٨	مؤلف : بول هازار
١٢٥	الفصل الثامن : الأجنبى كما يراه الفرنسي
١٢٦	دراسات جزئية
١٢٧	دراسات عامة
١٣٦	خلاصة
١٤١	فهرست

M.-F. GUYARD

LA LITTERATURE COMPAREE

Traduction Arabe

de

Henri ZOGHAIB

EDITIONS OUKIDAZ

Beyrouth - Paris

الأدب المقارن



اكتشف مؤرخو الأدب أن الثروات الأدبية لا تتوزع متساوية على الأمم والعصور، ولا هي تحتفظ بمستواها أينما كان، فقسّموها عصوراً وأساليب ومدارس، فصار لكل أمة أدب، والأمة التي لا أدب لها، لا تاريخ لها.

ما الذي يدرس هذه التفاعلات في ما بينها وفي ما بين آداب الأمم وأدبائها؟

الأدب المقارن...

مهمته اذن، أن يقيم الآداب ويوازنها بحسب انتمائها في التيارات الفكرية، مستنداً الى النقد الذي سبق وتناولها في شتى اغراضها وأساليبها واجناسها ومدارسها، في زمانها ومكانها وعلى اقلام المبدعين فيها.

واذا أدبنا العربي لم يعرف هذا النوع من الدراسات المقارنة في أمسه القريب، فثمة اليوم محاولات جديدة ودراسات جدّ موضوعية، تسمي الى ايجاد جذور كثيرة في أدبنا، لتيارات عالمية في الأدب تحاول أن تجد في الآداب العالمية، جذوراً تأثر بها أدبنا وأدباؤنا أو توارد مناها.

هذا الكتاب، يتجاوز حدود الامكنة ليصل الى التوارد الى نؤقلمه حدود.

انه يدعوك الى مغامرة تثيرك من دهشة.

ومع كتاب كهذا، تخلو المغامرة.

CONTRON'S RESEARCH
BIBLIOTHECA



To: www.al-mostafa.com